بلطجي و لكن

رمضان مصطفى سليمان

الحياة حياتنا تدور و تدور و نحن معها

الطريق إلى الأفق

كانت تظن أنّ الطريق أمامها مرصوف بالأضواء. فبعد سنواتٍ طويلة من الكدّ، وسهر الليالي، وانكساراتٍ صامتة لم تبح بها لأحد، حصلت على أعلى الشهادات التي كانت حلمها منذ صباها. يومها، شعرت أنّها أمسكت بخيط النجاة من عالمٍ كان يترصّد خطواتها، وأنّ مستقبلها لم يعد مرهونًا سوى بما تختاره بيديها. غير أنّ الأقدار، في هيئة أبٍ شديد البأس والسطوة، كان له رأي آخر.

حين أخبرها والدها ببرودٍ قاطع أنّها ستتزوج ابن أخيه، لم تستطع أن تخرج من فمها كلمة اعتراض. كان الصمت درعها الوحيد، وإن كان قلبها يمور برفضٍ هادر، كبركانٍ حُبس في جوف جبل. فكّرت، وقلّبت الأمر في عقلها المضطرب: كيف تنجو من هذا الفخ الذي نُصب لها باسم العائلة والشرف والقرابة؟

ابن العم ذاك، فتحي، لم يكن رجلاً يُبنى معه بيت. كان بلطجيًا، فتوة الأحياء الشعبية، يفرض الإتاوات على أصحاب المحلات الصغيرة و الكبيرة في المنطقة ، يمدّ يده الثقيلة على كل من يعترضه ، ويتباهى بسطوته في المقاهي والشوارع. لم يكن فقط متزوجًا بامرأتين عنوة، بل كان يتباهى بأنّه إذا أعجبه جمال فتاة، أو أغراه مالها، جعل الزواج قدرًا لا مفر منه، إما بترهيب أهلها أو بإذعانهم صاغرين. كان وحشًا متربصًا أكثر منه إنسانًا.

في ليالٍ طويلة، جلست إلى نفسها تبكي بصمتٍ، تشعر أن والدها لم يقرأ قلبها، ولم ير فيها سوى رقعة تُضاف إلى رقعة العائلة في لعبة النفوذ. كانت تسأل نفسها:

كيف يرمي بي أبي في بئرٍ مظلم كهذا؟ أما رأى أنّي تعبت لأجل أن أملك نفسي وحياتي؟ أما علم أنّي أستحق أن أكون إنسانةً لا غنيمة حرب؟

حين انهالت الأفكار فوق رأسها، تذكرت صديقتها المقرّبة التي هاجرت إلى أمريكا. ترددت في الاتصال بها لفترة وجيزة ، لكنها فعلت أخيرًا وقد تكسّرت كل جسور الصبر لديها. كان صوت صديقتها كنافذةٍ

من نورٍ في غرفةٍ موصدة، وعدتها بمساعدتها، وبأن تبعث لها دعوة أو تأشيرة تفتح أمامها بوابة الخلاص. ومنذ تلك الليلة، عاشت بين خوفٍ وأمل، تتحرك بخطواتٍ حذرة، تُخفي أوراقها، تُرتب أوراق السفر، وتحوّل المال بصمتٍ، كما لو كانت تخوض مؤامرة كبرى ضد القدر.

وحين سنحت اللحظة المناسبة ، هربت. تركت وراءها بيت العائلة بكل ثقله و همومه ، بكل نظرات الإدانة التي كانت تعرف أنّها ستلاحقها، بكل أسئلة الجيران ووشايات الأقارب. لم تلتفت. لم تكن قادرة على الالتفات. كانت تركض صوب المطار وكأنها تركض صوب الحياة ذاتها.

في أمريكا، استقبلتها صديقتها بفرحٍ ممزوج بالدهشة: فتاة تركت كل شيء خلفها لتولد من جديد. في البدء أقامت معها، ثم ما لبثت أن حصلت على عملٍ في الجامعة ضمن مجال تخصصها. لأول مرة شعرت أن لها كيانًا مستقلاً، وأنها تعيل نفسها، وتبني خطواتها بيدها، لا بيد رجلٍ يفرض وصايته.

لكن الحرية لم تكن مجرد هدية، بل امتحانًا أيضًا. ففي ذلك المجتمع المفتوح، المليء بالخيارات والطرق المتشابكة، وقفت بين عالمين: عالمها الشرقي الذي غُرست فيه جذورها، وتقاليده التي لا تزال تتسلل إلى ضميرها، وعالمٍ غربي يطالبها بأن تكون نسخة جديدة من نفسها. كان عقلها ساحة صراع: بين ابنة مطيعة نشأت على الخوف من كلمة الناس، وامرأة تريد أن تحيا بلا قيود.

وفي الجامعة، التقت به. زميل يشبهها في الشغف بالعلم، لكن عينيه كانتا تفضحان طوفانًا آخر غير الأوراق والبحوث. لم تمضِ أسابيع حتى اشتعلت بينهما قصة حبٍ عنيفة، كأنها تعويضٌ عن كل ما حُرمت منه. كانت معه فتاةً أخرى، أكثر جرأة، أكثر انطلاقًا، لكنه كان أيضًا امتحانًا جديدًا.

ذات أمسية، وقد غلبهما سحر القرب، حاول أن يقترب منها أكثر مما تسمح به حدودها. رفعت يدها، بعينين دامعتين، وقالت له بصوتٍ يختلط فيه الحب بالخوف:

في الحلال نعم... أما ما تطلبه فلا.

تردّد، ثم انكسر توتر اللحظة بابتسامةٍ باهتة. لم تفقده، لكنه جعلها تفهم أنّ الحب في هذه البلاد يُقاس بموازين مختلفة، وأن عليها أن تكون يقظة، متوازنة، تحمي نفسها دون أن تفقد قلبها.

ومع مرور الأيام، تم الزواج. زفاف صغير بلا صخب، لكنه كان إعلانًا لانتصارها على كل الأشباح التي طاردتها. انتقلت إلى شقته، وتركت شقتها، وبدأت حياةً جديدة لا تشبه أي حياةٍ عرفتها من قبل. كانت سعيدة، مترفة بطمأنينة لم تعرفها قط: بيت دافئ، حبٌ يملأ الأيام، عملٌ يمنحها مكانة. أحست أن العالم قد صالحها أخيرًا.

لكنها، في أعماقها، لم تتوقف عن التساؤل:

هل كان الهروب هو خلاصها حقًا، أم أنّها استبدلت سجنًا بآخر، أقل قسوة لكنه سجنٌ على كل حال؟ هل كانت حياتها ابتسامة قدرٍ، أم فخًا جديدًا يخبئ لها مفاجأته؟

كانت تعيش بين لحظتين: لحظة امتنانٍ للحياة التي وُهبت لها من جديد، ولحظة ترقبٍ لما قد يختبئ خلف ستار الأيام.

ومع ذلك، حين جلست مساءً بجوار نافذتها، تراقب الأفق الممتد، أدركت أنّها ابتسمت من قلبها لأول مرة منذ طفولتها. ابتسامة لم يفرضها عليها أحد، لم تُستدرج إليها خوفًا، ولم تُشترَ بتهديد. كانت ابتسامة امرأةٍ ولدت من جديد بعد أن عبرت بوابة النار .

طفولة البلطجي

كان في الخامسة من عمره حين فارقت أمه الدنيا، تلك المرأة التي كانت تضمّه إلى صدرها بحنان الأم كل ليلة ، وتغنّي له تهويدة النوم ، حتى يغفو، ثم تنقله بحنان إلى فراشه الصغير . يوم رحيلها، شعر وكأن دفء العالم كله قد انطفأ . جلس في ركن البيت صامتًا ، لا يفهم معنى الموت، لكن قلبه الصغير كان يعلم أنّ شيئًا عظيمًا قد كُسر فيه .

ولم تمضِ أشهر حتى قرر الأب أن يتزوج من جديد. أراد أن يجد لهذا الطفل من يرعاه، ويملأ فراغ الأم. كانت الزوجة الجديدة لطيفة في البداية كالملاك، تبتسم له، وتربت على كتفه ، على شعره، وتعامله كما لو كان ابنها حقًّا. وحين دخل المدرسة، ازدادت عنايتها به، حتى كاد أن يصدق أنه وجد أمًّا ثانية .

لكن سرعان ما تبدّل الحال.

حين حملت بطفلها لأول مرة ، تغيّر قلبها تجاهه. صارت تقسو عليه في غياب الأب، تصرخ في وجهه لأتفه الأسباب، وتصفعه إذا أخطأ . غير أنّها ما إن يعود الأب من عمله ، حتى تتحوّل إلى امرأة أخرى : تلاطفه، وتدعوه يا حبيبي، كأنها لم تكن قبل دقائق تنزع لقمته من يده.

وذات صباح، رحل الأب فجأة إلى جوار ربه لحق بزوجته، وترك الطفل وحيدًا تعيسا في مواجهة زوجة أب أزاحت قناع الرحمة تمامًا.

أخرجته من المدرسة بحجّة الظروف الصعبة، وأجلسته في دكان والده الصغير ليتعلم البيع والشراء. أما في البيت، فقد عرف الجوع والمهانة: طعام قليل، وشتائم كثيرة.

وفي إحدى الليالي، سمع جيرانًا يتحدثون عن رجل قتل امرأته بسمّ الفئران. كأنّ الفكرة استقرت في ذهنه تماما فجأة. في اليوم التالي ، اشترى السم من دكان بعيد ، وأخذه إلى البيت. راح يقدّم لزوجة أبيه العصائر مخلوطة بقليل من السم ، يساعدها في غسل الأطباق، ويكنس الأرض . فرحت به، وظنت أنّه أخيرًا قد صار ابنًا بارًّا.

لكن العصائر التي قدّمها كانت ممزوجة بقطرات خفية من السم. في البداية لم تشعر بشيء، ثم بدأت في القيء المستمر، حتى سقط جنينها وأدخلها الأطباء إلى المستشفى. هناك أجريت لها عملية غسيل معدة، ثم عادت إلى البيت منهكة.

أوقف الصبي خطته مؤقتًا، كي لا يُكتشف أمره. عاد يخدمها أسبوعًا كاملًا، يشهد له الجيران بالطيبة، ويتحدثون عن حنانه ورعايته لها . غير أنه ، ما إن استعادت عافيتها بعض الشيء ، حتى عاد إلى دسّ السم، هذه المرة في الطعام والشراب معًا .

وبعد أسابيع من الوهن والقيء والهزال، لم تعد تقوى على مغادرة السرير. ساعدتها نسوة الجيران بقدر ما استطعن، لكن جسدها كان قد أنهكه السم. وذات مساء، أسلمت الروح .

جلس الصبي في ركن البيت، يراقب جثمانها المسجّى. لم يذرف دمعة واحدة . بدا كأن قلبه صار حجرًا. ومع ذلك، كان داخله صوت خافت يهمس:

أأنا قاتل؟ هل كانت تستحق هذا المصير ؟

لكنه سرعان ما أسكت ذلك الصوت، وقال في نفسه:

لقد أخذت أمي مني... وأرادت أن تأخذ حياتي كلها.

صار وحيدًا تمامًا. يفتح الدكان صباحًا، ويعود ليلًا ليأكل من مطاعم الحي: فول، طعمية، كشرى، وفطائر من الفرن. شعر بحرية لم يعرفها من قبل، بل بشيء من النشوة، لأنه استطاع أن يتخلّص من قسوة زوجة أبيه. لكن تلك النشوة لم تخلُ من بذور شريرة أخذت تنمو في داخله.

مرت السنوات ، حتى بلغ الثامنة عشرة . كان جسده قد اشتد، و برزت عضلاته في ساعده ، ونظراته صارت حامدة قاسية، يلمع فيها شيء من التحدّي الشرير . دخل عالم البلطجة شيئًا فشيئًا:

يفرض السيطرة على صبية الحي، يشتبك مع من يعارضه، ويخيف الغرباء.

ومع ذلك، كان ثمة وجه آخر يظهر أحيانًا. فقد كان يساعد المحتاجين حين يمسّه الموقف.

وذات يوم، كان مفتش مباحث الكهرباء يجول في الحي، يطرق الأبواب، يطالب الأهالي بما تراكم عليهم من فواتير .وقف أمام محل صغير ، وصرخ في صاحبه :

ادفع يا راجل... يا دلوقتي يا نقطع النور!

توسّل الرجل، وقال بصوت مرتعش:

والله ما فيش معايا... استنى آخر الشهر.

لكن المفتش لم يرحم توسّله، ورفع يده مهددًا. عندها تقدّم الشاب، نظر إليه بعينين ثابتتين وقال:

كام المبلغ ؟

وأنت مالك؟

بقولك كام؟

تردّد المفتش، ثم نطق بالمبلغ. أخرج الشاب المال، وأعطاه إيّاه. ثم التفت إلى الرجل المرتعش وقال:

أنت زي أبوي... ما حدش يهددك طول ما أنا هنا.

في داخله، تردّد صدى صوت أمه الغائبة:

كنتِ ستفرحين بي لو كنتِ حيّة؟ أم كنتِ سترين فيّ وحشًا صنعه اليُتم والجوع ؟ .

لكن سرعان ما غمره إحساس بالقوة ، إحساس أنه صار سيدًا في هذا العالم القاسي.

وبينما غادر المفتش الحي، رآه صبية صغار، أخذوا يركضون وراءه، يهتفون:

الحرامي! آه الحرامي!

ويرشقونه بالحصى المتراكم في الحارة .

انطلق المفتش يجري مذعورًا، كأنه لص حقيقي. وقف الشاب يراقب المشهد، ابتسم ابتسامة ساخرة، ثم همس لنفسه:

الدنيا كلها حارة كبيرة... فيها ظالم ومظلوم، وأنا اخترت أكون الظالم، عشان ما يجيش يوم وأكون زي الراجل المسكين اللي كان حيقطعوا نوره.

رفع رأسه نحو السماء، تذكر أمه مرة أخرى، ثم أطرق هامسًا بصوت خفيض :

سامحيني يا أمي... صرت ما بين ملاك وشيطان، ولا أدري أيهما يغلبني .

و هكذا بدأ الطريق ، طريق البلطجة .

الزواج الأول ,, زواج بالقوة

لم يكن لقاؤه بها لقاءً عابرًا، بل بدا وكأن القدر أراد أن ينسج خيطًا مظلمًا حول حياتها. رآها واقفة مع شاب عند أطراف الحي، ضحكت معه قليلًا ثم افترقا. ظل يتتبع خطواتها حتى ابتعد الشاب، فاقترب منها بخطى واثقة، وفي عينيه بريق غامض لا يُقرأ. قال بصوت بارد:

سأخطبك غدًا.

نظرت إليه باحتقار، ثم استدارت كمن يطرد ظلًّا مزعجًا وعادت إلى بيتها، تحمل في قلبها شعورًا بالاشمئزاز والرفض. لم تكن تدري أن تلك اللحظة العابرة ستتحول إلى كابوس طويل.

في المساء، دوّى جرس الباب. فتحت، فوجدته واقفًا أمامها، كأنه يقتحم حياتها دون استئذان. دفعها بخفة إلى الجانب، ودخل الصالون وجلس صامتًا بانتظار أبيها. حين حضر، نظر إليه بثبات وقال:

جئت اليوم خاطبًا لابنتك.

ردّ الأب بهدوء مشوب بالجدية:

ابنتي مخطوبة.

لكن فتحي تجاهل كلماته كأنها لا تعنيه، وقال ببرود:

غدًا سأحضر المأذون وشاهدين ليُعقد القران.

ارتفع صوت الأب هذه المرة وهو يصرخ:

قلت لك إن ابنتي مخطوبة!

ابتسم فتحي ابتسامة غريبة، وقال بنفس البرود:

استعدوا.

ثم غادر المنزل وأغلق الباب وراءه، تاركًا صدى كلماته يتردد في الجدران كتهديد لا يُمحى.

+

في صباح اليوم التالي، وقعت مشاجرة عنيفة في الحي. الشاب الذي رآها معه البارحة، ممدد على الأرض يتلقى الضربات من شابين غريبين لا يعرفهما أحد. ظلوا يضربونه حتى تكوّم كجسد بلا روح. وحين غادروا، طلبوا من الواقفين أن يتصلوا بالإسعاف. تركوا خلفهم شابًا غارقًا في الدماء، وحكاية غامضة لا أحد يعرف خيوطها.

وبعد صلاة العشاء، عاد فتحي، ومعه المأذون وشاهدان. جلست نوال في وسط الصالة تبكي كمن يُقاد إلى مقصلة، لكن الدموع لم توقف سير الأوراق والأختام. الكلمات الشرعية ترددت في المكان كأصفاد حديدية تُحكم قبضتها على حياتها. وبعد أن انتهى كل شيء، وقف والدها وقال بوجه متحجر:

الفرح سيكون في الشارع، وستنزل العروس بجلباب البيت.

لم يكن صوت الأب يحمل حنانًا، بل بدا كمن يسلّم ابنته إلى قدر لا يعرف الرحمة.

+

حين أخذها زوجها إلى البيت، كانت ترتجف. قالت بصوت يائس:

سأنتحر.

ضحك ببرود وقال متحديًا:

على بركة الله... وسأقتل أباك ليلحق بك.

صرخت بوجهه:

لن تلمسني!

أعاد الجملة نفسها ببرود أشد:

على بركة الله... وسأقتل أباك لأنه لم يربك.

كانت كل كلمة منها تُقابل بجدار من التحدي، وكأن الحوار بينهما لا يفضي إلا إلى هاوية أعمق.

+

مرت الأيام ثقيلة كالأصفاد. وفي ليلة باردة، دخل عليها برفقة أبيها. كانت تجلس في ركن الغرفة كطائر مذعور، وحين رأت أباها إلى

جواره، شعرت بالخذلان ينهش قلبها. قال لها بلهجة ساخرة وصوت جاف:

ها هو أبوك سيكون ضيفك... إلى أن تعقلي.

اندفعت تبكي وتصرخ، لكن صراخها بدا بلا صدى، كأن الجدران تواطأت معهما لتخنق صوتها. تركهما الرجل في الشقة، بل تركها لأبيها، ومضى وكأن الأمر لا يعنيه.

+

في وحدتها، كانت نوال تغرق في حوار داخلي طويل. تساءلت :

كيف يمكن لإنسان أن يُسلب إرادته بهذه البساطة؟ هل أنا حقًا عروس أم أسيرة؟ لماذا صمت أبي، وكيف تواطأ مع هذا الغريب الذي اقتحم حياتي؟ أكنت مجرد لعبة بين أيدٍ لا تعرف الرحمة؟

كانت أفكارها تتصارع كأمواج في بحر هائج، تارةً تندفع نحو الانتحار لتضع حدًا للعذاب، وتارةً تتراجع خوفًا من مصير مجهول. الليل طويل، وهي وحدها تحاور نفسها، تبحث عن بصيص ضوء في عالم مظلم.

أما هو، فكان يعيش في عالم آخر، عالم تُحركه الرغبة في السيطرة. كان يرى الزواج معركة يجب أن يربحها، وأن الزوجة ليست سوى غنيمة ينبغي إخضاعها. لم يكن يسمع كلماتها، بل كان يسمع فقط صدى صوته الداخلي الذي يردد: على خيرة الله... سأقتل أباك.

+

ذات ليلة، جلست نوال أمام المرآة تحدّق في وجهها الشاحب، وتخاطب انعكاسها بصوت مرتعش:

من أنتِ؟ أهذه الفتاة التي كانت تحلم بحياة عادية، ببيت مليء بالحب والدفء؟ أم أنني مجرد شبح يمشي فوق الأرض؟

لم يُجبها انعكاسها سوى بعيون زائغة كأنها غريبة عنها.

وفي الوقت نفسه، كان فتحي يتمدد على سريره غير مبالٍ، يبتسم بسخرية، يفكر كيف أن العالم كله يستجيب لإرادته: الشارع، الأب، حتى القانون الذي لم يسأله عن رضاها.

+

لكن داخل عقل نوال، بدأت بذرة المقاومة تنمو بصمت. شعرت أنها إن بقيت صامتة، ستُمحى من الوجود. بدأت تفكر: ربما الصمت موت، وربما الكلام حياة. إن لم أقاوم، فلن أبقى سوى ظلًا مهزومًا.

كانت تبني في سرّها عالمًا آخر، عالمًا تتحدث فيه إلى الله كل ليلة، تشكو ظلم البشر، وتستمد قوة لا يفهمها من حولها. قالت في سرّها: لست وحدي... لن يتركوني إلى الأبد.

وهكذا، بينما كان الزوج غارقًا في وهم القوة، كانت هي تصنع في قلبها طريقًا آخر، طريقًا قد يقودها يومًا إلى الخلاص.

حكاية أخرى للحب
أسرار ما بعد الخمسين

في آخر الزقاق، حيث الأشجار المتهالكة تظلل الأرصفة والحجارة القديمة تنطق بعبق الزمن، تنتصب فيلا فتون هانم كقلعة صامتة، شامخة على الرغم من شحوب جدرانها.

يقال إن فتون من أصل تركي، فقد هبط والدها من أزمير في مطلع القرن، يحمل في قلبه حنينًا بعيدًا إلى البحر والأناضول. تزوج فتاة مصرية ريفية رقيقة ، أنجبت له فتون، ثم غادرت الدنيا سريعًا، تاركة الأب وحيدًا. لم يفكر في الزواج ثانية ، بل انغمس في أعماله التجارية التي انتشرت في المدينة : محلات صغيرة متناثرة، وشركة تغذية تمتد فروعها في كل مكان.

كبرت فتون في أحضان هذا الأب الصارم العملي ، وتعلمت منه فن الإدارة ، حتى أصبحت عينه اليمنى وذراعه القوية . وهبت نفسها للعمل ، حتى بدا الزواج عندها فكرة مؤجلة أو منسية . كانت أيقونة للانضباط : تستيقظ مبكرًا، تركب سيارتها البيضاء الرياضية، تخرج إلى عملها، وتعود بعد العصر مباشرة. أما الفيلا، فكانت عالمًا قائمًا بذاته: حديقة واسعة يعتني بها بستاني عجوز، يحرس أيضًا الباب الكبير للفيلا . في الداخل امرأتان غير فتون هانم :

سميرة، مدبرة البيت التي تتابع تفاصيل النظافة والخدم ، وسعاد، الطباخة التي تقضي يومها بين القدور وأبخرة الطعام، ولا تدخل إلى قلب الفيلا إلا نادرًا.

كانت حياة فتون تسير على إيقاع واحد، حتى جاء اليوم الذي قلب كل شيء.

+

في مساء دافئ، بينما كانت تعود من عملها، ارتطمت سيارتها بشاب لم تلحظه إلا حين كان جسده يرتطم بالحديد الأبيض. تكدس الناس بسرعة، لكن حين رأوا وجه المصاب، تراجع معظمهم مبتعدين في خوف صامت، وبقي ثلاثة فقط يراقبون الموقف بقلق.

قالت فتون هانم :

انقلوه إلى السيارة، بسرعة.

امتثلوا لأمرها، وما إن وضعوه في المقعد الخلفي حتى انسحبوا من غير كلمة ، كأنهم يهربون من لعنة ما . حملته إلى الفيلا، وأدخلته غرفة الضيوف التي لم تُفتح منذ زمن بعيد . هناك، استدعت طبيب العائلة العجوز.

فحص الطبيب الشاب وقال بهدوء :

اسمه فتحي؟ حسنًا... كُسرت ساقه اليسرى. سأضع له جبيرة، لكنه يحتاج إلى الراحة التامة، وممرضة مقيمة تعتني به.

أومأت فتون في صمت ، وشعرت بشيء غريب يتسلل إلى قلبها؛ إحساس لم تعرفه من قبل ، خليط من القلق والحنان والدهشة ، خليط من العطف و الحنان .

+

في منزل بعيد، جلست زوجته الصغيرة تحدق في أبيها. كان الحديث قد وصلهم سريعًا:

فتحي عند تلك السيدة .

قال الأب، بصوت متماسك يخفي ارتياحًا داخليًا:

كأننا لم نسمع شيئًا. ليبقَ عندها. هي أقدر على رعايته. ولعل في الأمر فرصة... أن يبتعد عنا قليلًا .

لم تعترض الزوجة، فقد كان قلبها مثقلًا بما يكفي من الشقاء، وزوجها لم يكن إلا ظلًا من رجل، مشغولًا بجمع الإتاوات من المحال، يفرض على الناس رهبة أكثر مما يفرض احترامًا. غيابه في بيت تلك السيدة الغريبة بدا لها راحة لا تُقاس بثمن. أما أصحاب المحال، فقد شعروا بنسمة حرية مؤقتة؛ إذ توقفت زياراته الثقيلة التي اعتادوا أن تُنزف منها جيوبهم.

+

في غرفة الضيوف، كان فتحي مستلقيًا، يحدق في السقف العالي المزخرف. الممرضة الجديدة تتنقل حوله بخفة، بينما تدخل فتون من حين إلى آخر، تسأل عن حاله، تراقب حرارة وجهه، وتطيل النظر في عينيه الغامضتين. كان فتحي يملك ملامح قاسية، لكنها مشبعة بجرح داخلي عميق . وحين يلتقي نظرها به ، يشعر بشيء لم يعرفه من قبل ؛ اهتمام امرأة لا تخشاه، بل تحاول أن ترى ما وراء صلابته.

ذات مساء، حين ساد السكون، تجرأ فتحي وسألها:

لماذا لم تتركيني على الطريق؟ كنتِ قادرة على الرحيل دون أن يراك أحد .

ابتسمت فتون ابتسامة هادئة، وقالت:

ربما لأني لم أتعلم أن أترك إنسانًا ينزف وحده. ربما لأني رأيت فيك شيئًا يشبهني.

ارتبك فتحي لأول مرة ، وشعر أن كلماته تخونه. لم يعتد على هذا النوع من النساء . امرأة واثقة، قوية، وفي عينيها حنان يذيب شيئًا في داخله.

+

مرت الأيام، وبدأت الجروح تلتئم. لكن ما انكسر في نفس فتحي لم يكن عظمًا، بل حصونًا بناها حول قلبه. صار يروي لها قصصه في الليل : عن طفولته الفقيرة المحرومة، عن قسوته التي تعلمها من الشارع ، عن زوجة لم يعرف كيف يحبها . كانت فتون تصغي، وفي كل مرة تكتشف أن الرجل الذي ارتطم بسيارتها لم يكن مجرد بلطجي يجمع الإتاوات، بل إنسان ضائع يبحث عن نفسه.

وفي لحظة صفاء، قالت له:

أحيانًا لا يمنحنا القدر فرصة الاختيار، لكن يمكننا أن نمنح أنفسنا فرصة التغيير.

تأملها طويلًا، كأنه يسمع لأول مرة جملة تحمل معنى الحياة.

+

لكن خارج أسوار الفيلا، كانت الهمسات تتصاعد. الناس يتساءلون: ماذا تفعل فتون هانم مع ذلك الشاب؟ زوجته تستمع للقصص وتلتزم الصمت، وأبوها يزداد صلابة. المحال التجارية تنتظر عودته بقلق، وكأن المدينة كلها في حالة ترقب حذر .

في قلب الفيلا، بين جدران صامتة، نشأت قصة لم يكن أحد يتوقعها. قصة امرأة تجاوزت الخمسين، ورجل اعتاد القسوة، التقيا على حافة الصدفة، فوجد كل منهما في الآخر ما افتقده طويلًا: هي وجدت قلبًا ينبض بالحياة خلف خشونة الظاهر، وهو وجد حضنًا إنسانيًا لم يعرفه منذ طفولته.

لكن السؤال ظل معلقًا في الهواء: هل تكون فتون مجرد محطة مؤقتة في حياة فتحي ، أم تتحول إلى الزوجة الثانية التي كتبها القدر في سطور لم يقرأها أحد بعد ؟

دموع فتون

أكثر من أسبوعين قضاهما فتحي راقدًا لا يقوى على الحركة، كجسد ممدد بين الحياة والموت. لم يكن بوسعه سوى أن يطلب ما يحتاجه من ضرورات الحياة عبر صوت متهدج، فتسرع إليه الممرضة لتلبي حاجته الملحة . لكن شيئًا ما كان مختلفًا، شيئًا جعل في صمته معنى آخر، وفي وحدته نورًا غريبًا.

كانت فتون هانم، السيدة التي تجاوزت الخمسين بوقارٍ مشوب بجمالٍ خافت، تجلس إلى جانبه. تضع الطعام في يده، تطعمه بيدين ثابتتين وابتسامة فيها حنان أمهاتٍ غبن عن حياته منذ زمن بعيد. كانت تقرأ له قصة قبل النوم .

لم يكن فتحي يرى في فتون مجرد سيدة أرستقراطية، بل ظلًّا لأمه التي رحلت مبكرًا، ودفء بيت افتقده منذ أن عرف قسوة زوجة أبيه .

في تلك اللحظات أحس أن الزمن يعيد تشكيل نفسه، وأنه يحيا حياة جديدة داخل هذا القصر المنعزل ، حياة يحرسها الحنان وتخترقها الذكريات . لكن خلف هذا الهدوء ، كان عالم آخر يتداعى ، عالم يتصل بمحلّه ، برجاله ، بامرأةٍ خانت عهده ، وبدمٍ يسيل في الأزقة.

في إحدى الزيارات، دخل صبيه الذي يدير المحل، يقف متردداً قرب سريره:

سيدي... هناك أخبار لا بد أن تعرفها.

رفع فتحي رأسه بصعوبة، كأن الكلمات نفسها تثقل صدره:

قل.

زوجتك... تقابل رجلاً... حبيبها القديم... كل يوم تقريبًا.

شعر فتحي أن صدره امتلأ نارًا. لم تكن الغيرة وحدها، بل إهانة لا تُحتمل. حدّق في الشاب بعينين تقدحان غضبًا:

اطلب من معاونيك أن يلقنوه درسًا... ضربًا لا ينساه.

وبعد أيام، عاد الشاب بخبر جديد. الزيارة تتكرر، السرّ ما زال يتنفس. فتحي هذه المرة لم يحتمل:

اقتلوه. لا أريد أثراً... لا دليل... افهم؟

وبالفعل، سقط الرجل مقتولًا بضربة على مؤخرة رأسه، الدم انفجر كأنه شلال خفيّ، والجثة ألقيت وسط الحي كسرٍ ثقيل.

X

لم يدم الصمت طويلاً. جاءت الشرطة، والمباحث تجوب المكان، والزوجة خانت حتى في ولائها الأخير، فأشارت بأصابعها إلى فتحي:

هو... هو القاتل. يعرف كل شيء عن علاقتي... ستجدونه عند فتون هانم، في قصرها آخر الشارع.

طرق رجال المباحث أبواب القصر. تقدم البستاني ليخبر سيدته، فسمحت لهم بالدخول. تقدّم رئيس المباحث وقال لها:

نريد فتحي... للاستجواب.

ابتسمت فتون ابتسامة باهتة، وقالت بهدوءٍ يفيض قوة:

تفضلوا ، إلى غرفة فتحي .

قادته إلى الغرفة حيث يرقد فتحي، رجليه ملفوفتان بالجبس الأبيض، يراقب الداخلين بعيون لا تعرف الخوف. قالت فتون بصوت ثابت:

ها هو... لم يغادر هذه الغرفة منذ أسبوعين، رجلاه مكسورتان. اسألوا الطبيب والممرضة، سيشهدان على ذلك .

اقترب رئيس المباحث، فإذا بالطبيب واقف بجوار السرير، والممرضة تحيطه برعاية صامتة. قال الطبيب:

نحتاج لإجراء أشعة جديدة. سأرسل سيارة إسعاف.

صرخت فتون فجأة، كأنها اندفعت دون حساب:

لا! سيبقى في القصر... هنا مكانه.

رد رئيس المباحث بلهجة رسمية:

اطمئني يا سيدتي. سيكون في رعايتنا، ثم يعود إليك.

X

نُقل فتحي إلى المستشفى، ترافقه فتون ورجال المباحث. جرى الفحص، خُلع الجبس العتيق، ووُضع آخر جديد. قال الطبيب، وهو يضع يده على كتف فتون:

سيظل راقدًا شهرًا أخر... ربما يطول الأمر ، فلم تلتحم العظام .

بكت فتون ، كأنه طفلها ، دموعها تنزلق كأنها تعترف بأسرار قلبها المخبوء . التفتت إلى رئيس المباحث:

أرجوك... ضَع حراسة على القصر... هو بريء .

عاد رئيس المباحث حائرًا، كأنه رجع إلى نقطة الصفر. أقوال الزوجة التي انهارت، لا دليل سوى كلماتها الخائنة. أما القتيل، حبيب نوال، فقد كان وحيدًا لا أهل له، فضاعت الاتهامات، وقُيدت القضية ضد مجهول.

X

في القصر، كانت لحظة المواجهة. نظر فتحي إلى فتون، وقال بصوت متردد:

لماذا... لماذا قلتِ أمامهم إنني زوجك؟

ارتعش صوتها وهي تجيبه:

لأبعد عنك التهمة... أنت لا تستحق هذه المهانة.

أشار إلى الممرضة أن تخرج، وبقي وحده معها. غاص في صمته قليلًا، ثم قال:

فتون... سأقص عليك حياتي. منذ طفولتي المبكرة ، إلى يوم حادثتك . كل شيء جرحني حتى لم أعد أحتمل كبته . أما أنت... فقد كنتِ الرحمة الوحيدة ، الوحيدة التي أراها منذ فقدت أمي ، أنت البلسم الذي يداوي جروحي .

سرد لها قصته: أم ماتت مبكرًة، أب قاسٍ لا يهتم إلى بنفسه و مزاجه، زوجة أب قاسية لا تعرف إلا الجلد والإذلال. ثم شاب ضائع بين تجارة ، وأحلام مهدورة. وحين انتهى، نظر إليها بعينين مرهقتين :

أريد أن تحضري مأذونًا... نكتب كتابنا. ليس حُبًا وحده... بل حفاظًا على سمعتك. أنتِ تستحقين أن تبقي في مقامٍ لا يطاله لسان الناس .

فتون صمتت ، ونظرت إليه ، وابتسامة حزينة ارتسمت على وجهها، دمعة خجولة انزلقت من عينها لتفضحها. في تلك اللحظة، لم تكن تعرف هل تبكي على حياتها التي أوشكت أن تُكتب من جديد، أم على رجلٍ محطم قرر أن يمنحها اسمه كستارٍ أخير ، خوفا عليها من الفضيحة .

X

الليل هبط على القصر كأنه ستارة . فتحي غفا تحت وطأة الدواء، وفتون جلست قرب النافذة ، تتأمل الكون ، تحدّق في الشارع المظلم تارة رغم بعده . ظلال الشرطة عند البوابة ، همسات الممرضة في الممر، والريح تمسح جدران القصر كأنها أسرارٌ تتنفس.

رفعت رأسها إلى السماء، كأنها تسألها عن سرها :

هل أستطيع أن أبدأ الحياة من جديد؟ أم أن كل شيء سيعود ليبتلعني في جوفه ؟ .

وفي داخله، فتحي وهو بين اليقظة والنوم، سمع صدى صوت بعيد، كأنه صوت أمه:

الرعاية ليست دائمًا خلاصًا... أحيانًا تكون قيدًا.

ابتسم ابتسامة باهتة حزينة ، كأنها ابتسامة من يعرف أن المصير ما زال يكتب سطوره الأخيرة القادمة . هل ستهبط السعادة عليه من حيث لا ينتظر .

بين التاج والجرح

كانت **فتون هانم** امرأة لا يشبهها أحد. امرأة صنعت لنفسها عرشًا من ذهب وحرير معًا؛ امتلكت المحال التجارية في معظم المحافظات، ومصنعًا للملابس الجاهزة، يمد محلاتها بما يلزم من الملابس الجاهزة ، وآخر لصناعة لعب الأطفال، وشركة تصدير فتحت لها أبوابًا إلى العالم. لكنها، وسط هذه الإمبراطورية، كانت تبحث عن شيء آخر، شيء لا يُشترى ولا يُباع كانت تبحث عن الحب التي فقدته في بناء إمبراطورتيها .

أما **فتحي**، فقد خرج من تجربة مريرة كسير الساقين والجسد والروح. حين بدأ يمشي في البيت متعثرًا، مدت هي يدها لا لتسنده فقط، بل لتفتح له أبوابًا جديدة في حياتها.

أحست أن فتحي هو آخر شعاع في حياتها ، لتعبر بوابة الحب الموصدة .

X

في صباح صافٍ، أخذته معها في جولة على جميع أعمالها. وقفت بجواره، ابتسامتها نصف ابتسامة، وقالت له بنبرة تحمل الوعد والاختبار:

سوف تساعدني في إدارة كل أملاكي ، أو قل أملاكنا .

لم يتردد لحظة.

أعدك أن أجعلها أكثر قوة، وأكثر حياة.

لمعت عيناها. كان في صوته شيء لم تسمعه من قبل؛ خليط من الحلم والطموح والخوف.

اقترح عليها ذات مساء أن تجمع تلك المحال الصغيرة المتناثرة في مول ضخم يضمها جميعًا، ليصير تاجًا على رأس المدينة. نظرت إليه مطولًا، ثم قالت:

فكرة جريئة... تعجبني. سنبني المول، وليكن هو مشروعنا معًا ، حلمتا معا .

لم يمر سوى شهرين حتى ارتفع البنيان كأنما تحدى الزمن. أضافت إليه مطاعم كبرى ، و بوفيهات متنوعة ، و أماكن للراحة ، وزينته بواجهات زجاجية لامعة تعكس ضوء الشمس نهارا ، والأنوار الليلية.

وقفت أمامه ذات يوم، وفي عينيها بريق الجدية:

لكننا نحتاج شبانًا وشابات لتشغيل هذا المكان. من أين نأتي بهم؟

أجابها بابتسامة عريضة :

نأخذ شباب الحي العاطلين. أعطوهم فرصة ، دعوهم يحرسون أحلامهم من الضياع و هم جلوس على المقاهي ، وسيحرسون أحلامنا نحن أيضًا .

ابتسمت ابتسامة خفيفة، وكأنها تكتشف فيه بعدًا جديدًا. نفذت الفكرة على الفور، خصصت لهم سيارتين لنقلهم، وصممت لهم ملابس موحدة أنيقة. تحول المكان إلى لوحة بشرية من الألوان والحركة والأمل.

أما هو، فقد غير نفسه قبل أن يغيره الآخرين. جعل من رجاله حراسًا له ولها، لا عصابة بل رجالًا يحتمون بالمسؤولية. تخلى عن فكرة البلطجة في الحي، وارتدى بدلًا من القمصان القديمة والبنطال المتهالك حلة أنيقة وربطة عنق، حتى صار كأنه وُلد من جديد.

ليالي طويلة جمعتهما بعد انتهاء العمل، يجلسان في شرفة بيتها المطل على النيل، يتبادلان الصمت أكثر من الكلمات. وفي ليلة من ليالي الصيف، كسر فتحي الصمت وقال:

أ تعرفين يا فتون، أشعر أحيانًا أنني أعيش في حلم... لم أكن أتصور أن أرتدي هذه الحلة يومًا، أو أن يقف الناس ليحيوني احترامًا لا خوفًا.

رفعت فتون عينيها إليه، في نظرها شيء من الحنان والقلق:

الحلم جميل يا فتحي، لكن لا تدع نفسك تنساق وراءه حتى يبتلعك. النجاح ليس قميصًا أنيقًا، بل عقل بارد وقلب قوي.

تأمل كلماتها، ثم قال بهدوء:

وأنت... ما الذي تبحثين عنه يا فتون وسط كل هذا المجد والمال؟

ساد صمت ثقيل. لم تجب في البداية، كأنها تقاوم اعترافًا غائرًا. ثم قالت بصوت خافت:

أبحث عن شريك لا يطمع في عرشي، بل يفهم وحدتي.

كاد قلبه يقفز من صدره، لكنّه أخفى اضطرابه بابتسامة مرتبكة.

مع مرور الأيام، بدأ فتحي يشعر أن التاج الذي تضعه على رأسه أثقل من أن يحمله. داخله صوت يتساءل :

هل أنا حقًا شريك؟ أم مجرد تابع صعد معه الحظ فجأة؟

كان يختلي بنفسه طويلًا، يتأمل صورته في المرآة وهو يرتدي حلة لم يعرفها من قبل. وفي داخله ارتباك :

هل هذه أنا؟ فتحي ابن الحي الشعبي، أم رجل الأعمال الجديد الذي تصنعه يد امرأة؟

وذات مساء، اجتمع العمال في المول للاحتفال بالافتتاح الكبير. كان المكان يتلألأ بالأضواء، والموسيقى تعزف لحنًا صاخبًا. وقف فتحي بجانب فتون، والكل يصفق ويهتف باسمها. همس في أذنها:

اليوم أنتِ الملكة بحق ، سيكون التاج رمزا لك .

ابتسمت، ثم نظرت إليه نظرة عميقة:

بل نحن معًا من صنعنا هذا المجد. لكن تذكر، يا فتحي، الملكة وحدها لا تعيش بلا شريك لها حقيقي في الملك .

ارتجف قلبه. لكنه لم يجد الشجاعة ليجيب.

في تلك الليلة، حين انفض الجمع، جلس وحده في شرفة بيته القديم. نظر إلى الحي، إلى الأزقة الضيقة التي تركها خلفه، وإلى رفاقه الذين أصبحوا حراسًا بدلًا من بلطجية. سمع صوتًا داخليًا يهمس:

لقد غيرت مصيرك، لكن هل غيرت نفسك حقًا؟

ثم تذكر كلماتها التي ما زالت ترن في أعماقه :

أبحث عن شريك يفهم وحدتي.

تساءل بمرارة

:هل أستطيع أن أكون هذا الشريك الذي تريده ؟ أم أنني مجرد ظل يمشي وراء خطواتها ؟

في اليوم التالي، دخل إلى مكتبها وهو يحمل في عينيه قرارًا لم يكتمل بعد. جلست خلف مكتبها الفخم، ترفع رأسها لتراه، فقال بصوت متردد:

فتون... هل تعتقدين أنني أستطيع أن أكون أكثر من مدير لأعمالك؟

صمتت لحظة طويلة، ثم وقفت أمامه، اقتربت حتى كادت تلمس وجهه، وقالت:

هذا السؤال لا أجيب أنا عنه... بل أنت.

خرج من عندها يتأرجح بين اليقين والضياع. في قلبه شعور عميق بالحب والخوف معًا، وفي رأسه دوامة من الأسئلة.

هل كان قد وجد نفسه أخيرًا في حياتها، أم أنه على وشك أن يفقدها لأنها تبحث عن شيء أعقد من المال والسلطة ؟

وبينما كان يسير في ردهات المول الجديد، يسمع أصوات الباعة والعمال والضحكات، أدرك أن النهاية لم تُكتب بعد.

ربما ستكتب بيده، وربما بيدها... وربما يتركها القدر مفتوحة، مثل نافذة تطل على ليل لا ينتهي.

ما وراء الموج

كان اللقاء الأول مجرد صدفة في ممر القصر، عابراً كنسمة مسائية لا تُحدث أثراً في أوراق الشجر . لم يكن قد التفت إلى فتون كثيراً ، تلك السيدة التي اعتادت أن تملأ المكان بهدوئها، بابتسامتها التي لا تكشف كل شيء. لكن شيئاً ما تغيّر حين شعر بفيض حنانها ؛ لمسة عابرة على كتفه، نظرة طويلة تُشبه همس البحر قبل العاصفة، دلالٌ لم يعرف له مثيلاً من قبل.

بدأ يقترب منها بتردد، كما يقترب طفل من شعلة نار يخشى أن تحرقه لكنه لا يستطيع مقاومة دفئها. في البداية قبلة خاطفة على جبينها، وكأنه يختبر رد فعلها . وحين لم يجد صدّاً، بل استسلاما ، تمادى بخجلٍ مرتجف إلى شفتيها، ثم أخذ يزرع على وجهها قُبُلات متلاحقة ، كمن يبحث عن ضوء في عتمة طويلة.

ذات صباح ربيعي، جلست فتون إلى جواره في شرفة القصر المطلة على الحديقة، وقد ارتدت ثوباً أبيض شفاف يلمع في ضوء النهار. كانت عيناها تلمعان بفضول طفولي حين قالت :

ما رأيك لو نذهب إلى المصيف؟ البحر يفتح أبواب القلب.

ابتسم، شعر أن جسده كلّه صار خفيفاً مثل غيمة :
كما تريدين يا حبيبتي... تغيير الجو سيكون مفيداً لنا.

X

سافرا معاً إلى مرسى مطروح، دون حراسة، كأنهما هربا من كل القيود. الفندق المطل على البحر كان شبه خالٍ من النزلاء، كأن المكان فُتح لهما وحدهما.

في الصباح، كانت فتون تستيقظ مبكراً، تذهب إلى الشاطئ بخطوات عارية على الرمال الباردة . تمدد جسدها على الرمل بمايوه

شبه بكيني ، تُعرض ظهرها تارةً ، وصدرها تارةً أخرى ، لشمس الصباح التي تلمسها بحنوّ. كان يراقبها من بعيد ، يندهش من تلك الحرية التي تسكنها ، حرية لم يعهدها من قبل، من قدرتها على أن تُصادق البحر والريح وكأنها خُلقت من موج.

اقترب منها ذات يوم ، جلس قربها على الرمل، وراح يتأمل البحر الهادئ الذي يبتلع الأفق. قال :

هل تصدقين أن البحر يشبهكِ تمام الشبه ؟ كلما اقتربتُ منه، ازداد اتساعاً وغموضاً.

ضحكت، ورشّت عليه حفنة من الرمل كطفلة مشاكسة :

وأنت تشبه الموج... لا تهدأ أبداً ، في ثورة متجددة ، كلما ظننتك تبتعد عني ، عدتَ لتقترب من جديد.

قالت و هى تنفض الرمال عن جسمها ، سأنزل إلى الماء ، تعالى نعوم سويا كالفراش .

X

في أحد الأيام، اقترحت أن يذهبا إلى حمّامات كليوباترا، حيث الصخور تحتضن البحر وتحوّله إلى بحيرة صغيرة من الضوء الأزرق . هناك ، حين غاص جسدهما معاً في الماء، شعر أنهما خرجا من الزمن . الماء كان يحيط بهما من كل جانب ، يعانق الجسدين ويذيب الحدود بينهما.

سألها وهو يطفو إلى جوارها:

هل تظنين أن كليوباترا سبحت هنا مثلنا؟

ربما سبحت مع أنطونيو ... لكن الفرق أننا نملك لحظة لا تملكها هي ، لحظة حرية .

اقترب منها أكثر، أحاط خصرها تحت الماء، شعر أن البحر نفسه صار شريكاً في عناقهما.

X

في المساء، على شرفة الفندق، جلسا معاً يستمعان إلى صوت الأمواج الهادرة كأنها سيمفونية . الهواء العليل كان يبعثر خصلات

شعرها الناعم الذهبي الطويل على وجهها. التفتت إليه وقالت بصوت خافت :

أيام السعادة تمر بسرعة.

ضحك وهو يرفع كأسه:

ستكون كل أيامنا سعادة وفرحاً، سنجعل من حياتنا رحلة لا تنتهي.

لكنها لم تضحك. كانت عيناها شاردتين نحو البحر.

وهل تظن أن السعادة تُحفظ في صندوق نخرجها متى نشاء ؟ إنها مثل الرمل، كلما قبضتَ عليه تسرّب من بين أصابعك.

سكت قليلاً، شعر أن كلماتها تخترق صدره. ثم قال :

إذن فلنترك الرمل يتسرب ببطء ، لكننا سنبني منه قلعة جديدة كل يوم.

ابتسمت أخيراً، وربّتت على يده.

X

ليلة أخرى، لم يستطع النوم. استدار نحوها وهي نائمة بجانبه، سمع أنفاسها المتقطعة، رآها تبتسم في الحلم. تساءل :

هل تبتسم لي؟ أم لشيء آخر يسكن ذاكرتها؟

بدأ يفكر في نفسه :

هل أنا حقاً بطل هذه الحكاية أم مجرد عابرٍ في حياتها؟

كان يشعر أن البحر الذي جمعهما قد يخفي في أعماقه أسراراً لا يعرفها. ومع ذلك، كان غارقاً في حبها كما يغرق الغريق الذي لا يريد النجاة.

X

حين انتهى الأسبوع، ووقفا على الشاطئ للمرة الأخيرة يودعان ايام السعادة ، أمسكت بيده وقالت:

ليتنا نستطيع أن نوقف الزمن هنا.

أجابها وهو يحدق في الأفق:

ربما لا نستطيع أن نوقفه، لكن يمكننا أن نخدعه... نسرق منه لحظات ونخبئها في ذاكرتنا.

ترك البحر وراءه موجاً لا يتوقف، كأنه يريد أن يقول لهما إن السعادة مثل الموج: تأتي وتذهب، لكنها تظل وعداً أبدياً بالعودة.

رحلا عن الشاطئ، لكن في داخلهما بقيت أصوات البحر، بقي دفء الشمس على الرمل، بقيت همسات لم تُكتمل. كأن القصة لم تنته بعد... بل بدأت للتو.

حوار يائسة

كانت نوال تمشي في أروقة المول كما تمشي ظلال الغيوم فوق بحيرة راكدة ؛ لا صوت لها، ولا أثر ، ولا رغبة في أن تُرى. جسدها حاضر ، لكن روحها كانت معلّقة في مكان آخر ، في بقعة غامضة بين الخوف والتمرّد ، بين الرغبة في النجاة والعجز عن الهرب.

تعلم يقينًا أنها مراقَبة ، لا تحتاج إلى عيونٍ ترصدها كي تشعر بذلك ؛ فالمراقبة كانت تسكن داخلها، في ارتعاشة أصابعها ، في انكسار خطوتها ، في انقباض قلبها كلما اقترب منها رجل ، أو عبر شابٌ بجوارها مبتسمًا. كانت تعرف أن أي اقتراب يُحسب ، وأن أي التفاتة تُفسَّر ، وأن أي كلمة قد تتحوّل إلى سكين ، لذلك ، كانت حريصة ، بل قاسية ، حدّ الوحشية.

كلما حاول شاب أن يقترب منها ، كان يصطدم بجدارٍ من الاحتقار الصارم في عينيها ، كانت تنظر إليه نظرة تُجرده من إنسانيته ، ثم تقول بصوتٍ باردٍ حاسم:

ابتعد عني... وإلا ستكون نهايتك على يدي.

لم تكن تهديدًا فارغًا . كانت صرخة استغاثة متنكرة في هيئة وعيد.

في داخلها ، كانت نوال تتساءل :

لماذا يجب أن أعيش كل هذا الجحيم لأحمي نفسي ؟ لماذا يُفرض عليّ أن أكون سجنًا لنفسي ؟

لكنها لم تكن تملك ترف الأسئلة . فحياتها منذ أن تزوجت فتحي تحوّلت إلى سلسلة طويلة من الأوامر ، والمراقبة ، والعقود ، والقيود غير المرئية.

فتحي. اسمه وحده كان كافيًا ليوقظ في صدرها زلزالًا من الذكريات ، المتناقضة حدّ التمزّق . كان زوجها... وكان سجانها.

وحين علمت بزواجه من صاحبة المول ، شعرت أن شيئًا في أعماقها قد انكسر إلى الأبد . لم يكن الغضب هو ما اجتاحها ، بل شعور مرير بالإهانة . لم تعد زوجة ، بل بندًا في عقد ، ملحقًا إداريًا ، توقيعًا باهتًا في هامش حياة رجل.

أرادت أن تقابله . لا لتعاتبه ، ولا لتبكي ، ولا لتستجديه . بل لتضع حدًا لهذه المهزلة.

لكن فتحي كان يتهرّب منها كما يتهرّب الظل من الضوء. كلما لمحها في أرجاء المول ، غيّر مساره، أو اختفى خلف أحد المكاتب ، أو انشغل فجأة بمكالمة وهمية.

كانت تراقبه من بعيد ، قلبها ينبض بقوة ، وأفكارها تتصارع: هل أنا لا شيء إلى هذا الحد ؟ هل صرت شبحًا ؟

وفي لحظة يأس مطلق ، حين بلغ بها الاختناق ذروته ، قررت أن تفعل ما لم يخطر ببالها يومًا.

كان المول يعج بالناس . ضجيج الخطوات ، أصوات الأطفال ، موسيقى المتاجر ، رائحة القهوة ، ضحكات العابرين . عالم كامل يحتفل بالحياة ، بينما هي وحدها كانت تقف على حافة الانهيار.

رأته يمر .خطواته واثقة ، وجهه جامد ، عيناه لا تريان سوى الأرقام والعقود. ركضت نحوه. وفي لحظة جنونية، ارتمت أمامه على الأرض.

تجمّد المكان. ارتفعت الهمهمات . توقّفت الخطوات . تحوّلت العيون إلى بقعة واحدة. صرخت بصوتٍ اخترق الضجيج :

أنا حامل !

كأن صاعقة ضربت رأس فتحي .تراجع خطوة ، ثم خطوتين ، وكأن الأرض تهتز تحته .كان يعلم يقينًا أنه لم يقترب منها . وكان يعلم أن عيون المراقبة لم تُبلغه بأي لقاء مشبوه.

اقترب منها ، انحنى قليلًا ، وهمس بحدة :

ماذا تقولين ؟ هل جننتِ ؟

رفعت رأسها ، عيناها تقدحان شررًا ، وقالت بهدوء غريب:

فلنجلس ونتحدث كعاقلين.

كانت تدرك أن الصدمة وحدها ستكسر جدار هروبه.

تلفّت حوله ، رأى الوجوه المتجمّعة ، والفضول المتربّص ، والفضيحة التي قد تنفجر في أي لحظة.

قال بصرامة مكتومة :

بعد انتهاء العمل في المول ، سنجلس ونتحدث خارج المول.

ابتسمت في داخلها . لقد نجحت.

في إحدى الكافيهات القريبة ، جلسا متقابلين . كان بينهما طاولة صغيرة ، لكنها بدت كبحرٍ كامل يفصل بين عالمين.

نظر كل منهما إلى الآخر نظرة عداء وتربّص . صمت ثقيل كان يلف المكان ، كأنه انتظار لانفجار وشيك.

قال فتحي أخيرًا ، بصوت خالٍ من أي عاطفة :

من صاحب هذه الجريمة ؟

ابتسمت نوال ابتسامة باهتة ، وقالت بهدوء:

لقد كذبت عليك . أردت فقط أن أجلس معك . أردت أن أتحدث إليك عن الطلاق.

ساد الصمت.

كان فتحي يقلب كلماتها في ذهنه كأنها أحجار شطرنج . ثم قال ببروده المعتاد:

لن أطلقك مهما حدث . أنتِ مراقبة طول النهار وطول الليل ، وستبقين كالبيت الوقف... حتى تلين دماغك .

ارتعشت شفتاها.

إلى متى ؟!

إلى أن تفهمي.

أفهم ماذا ؟ أنني عبدة ؟ أنني سلعة ؟

نظر إليها بجمود:

أفهمي أنكِ ملكي.

ضحكت . ضحكة قصير ة، مكسورة ، أشبه بالبكاء.

سأقتل نفسي.

قالتها كما من تُلقى ورقة أخيرة على طاولة قمار.

لم يرمش.

سوف ترتاحين... وأرتاح.

كلماته كانت كالرصاص البارد . لم تكن قسوة ، بل فراغًا تامًا من أي إحساس.

قالت بصوتٍ متهدج:

سأترك العمل في المول.

رفع حاجبه بسخرية:

العقد الذي وقّعتِ عليه ينص على ألا تتركي العمل. وإذا أردتِ تركه ، ستدفعين مليون جنيه.

كانت الدموع تنساب على وجنتيها بلا صوت .شعرت كأنها محاصَرة داخل قفص زجاجي : ترى العالم ، تسمعه ، لكنها لا تستطيع لمسه.

نادَى الجرسون، طلب الحساب، ثم وقف. وقبل أن ينصرف، قال دون أن ينظر إليها:

أنتِ تفكرين تفكيرًا خاطئًا... وأنا مصمم حتى تلين دماغك.

X

خرج من الكافيه ، تاركًا خلفه امرأة تتفكك ببطء.

جلست نوال تحدّق في الفراغ . كانت الأصوات من حولها بعيدة ، مشوّشة ، كأنها تأتي من عالم آخر.

هل هذه حياتي ؟ هل خُلقت لأكون ظلًا ؟

راحت تتأمل وجوه الناس : شاب يضحك مع حبيبته ، امرأة تمسك يد طفلها ، رجل يحتسي قهوته بهدوء. مشاهد عادية ، لكنها بدت لها معجزات بعيدة المنال.

داخلها ، كانت حرب طاحنة تدور . بين الخضوع والتمرّد .بين الخوف والرغبة في الانفجار.

تذكّرت نفسها قبل فتحي .كانت فتاة تحلم ، تكتب ، تضحك ، تخطئ ، تصيب ، لكنها كانت حرّة. أين ذهبت تلك الفتاة ؟

شعرت بأن روحها تصرخ من أعماقها:

انهضي... لا تموتي ببطء.

في تلك اللحظة ، أدركت أن المعركة لم تعد مع فتحي وحده ، بل مع ذاتها أيضًا. أن تكون حيّة... أو أن تكون نسخة مشوّهة من امرأة.

مسحت دموعها ، ونهضت.

لم تكن تعرف الطريق بعد . لكنها كانت تعرف شيئًا واحدًا:

أنها لن تلين . حتى لو انكسرت.

X

وفي تلك الليلة ، حين عادت إلى غرفتها ، جلست أمام المرآة طويلًا. تأملت وجهها الشاحب ، عينيها المرهقتين ، خطوط القلق التي حفرتها السنوات.

همست لنفسها:

لن أكون بيتًا موقوفًا... لن أكون جدارًا بلا نوافذ.

وكان في صوتها بذرة تمرد، صغيرة ، لكنها عنيدة. تمامًا كنوال.

شرود فتون

كانت **فتون** تجلس في شرفة غرفتها، تطلّ على الأفق المموج بالغيوم الرمادية. الهواء يعبث بخصلات شعرها الذهبي ، كأنه يشاركها شرودها، فيما كانت عيناها تسبحان في الأفق البعيد بلا وجهة واضحة، كأنها تبحث عن شيء ضاع منها منذ زمن بعيد . في تلك اللحظة، دخل زوجها **فتحي** حاملاً صينية الشاي، بخطوات هادئة تخشى أن تقطع خيط أفكارها. وضع الصينية أمامها ثم أمعن النظر في ملامحها، فوجدها غارقة في صمتٍ شفيف يكسوه حزن غامض.

اقترب منها وقال بصوت دافئ :

فيمَ تفكرين يا حبيبتي فتون؟ لقد طال صمتك، وعيناك تحملان وجعاً أعرفه جيداً.

ارتجفت شفتاها وهي تجيبه بنبرة مضطربة، كأن الكلمات ثقيلة على قلبها :

تذكرتُ وصيّة أبي... يوم كان يسلّم الروح.

ساد صمت قصير بينهما، ثم قال فتحي برفق:

وماذا قال لك؟

خفضت عينيها نحو الصينية، وراحت تحرّك الملعقة بلا وعي، ثم همست:

قال لي إن لي أختين تكبرانني، تعيشان في قرية ريزا بتركيا... لم يكتب له أن يزور تلك القرية مرة أخرى.

انعقد حاجباه بدهشة، ثم قال:

أختان؟ ولماذا لم تبحثي عنهما؟

أجابت بصوت مرتجف، وقد ارتسمت على ملامحها ظلال تردد وخوف قديم:

خشيتُ أن يرفضا استقبالي... فهما من أم أخرى طلقها أبي قبل أن يتزوج أمي. أخشى أن يكون بيننا جدار لا يمكن هدمه.

مدّ فتحي يده إلى يدها، شدّ عليها بحنان، وقال بابتسامة مطمئنة :

أنتِ لا تعرفين ما يخبئ القدر يا فتون . ربما كانتا تنتظرانك منذ سنوات . ما رأيك أن نذهب معاً لزيارتهما؟ لعلّ اللقاء يداوي هذا الشرخ الذي يسكن قلبك.

رفعت رأسها إليه، وفي عينيها دمعة أبت أن تسقط. لأول مرة منذ وقت طويل، شعرت أن بريق الأمل يلوح في الأفق، فابتسمت وقالت :

سأجهز نفسي، وأنت جهّز جواز سفرك. غداً أذهب إلى السفارة لأستخرج التأشيرة.

X

في صباح يوم الرحيل، كانت فتون ترتب حقيبتها بعناية مفرطة، كأنها ترتب حياتها من جديد. كل قطعة ملابس تضعها كانت تذكّرها بأيام الطفولة في حضن أبيها، حين كان يحكي لها عن الجبال الخضراء والأنهار المتدفقة في تركيا. تلك الحكايات التي بدت آنذاك كقصص أسطورية، ها هي الآن تتحول إلى حقيقة على وشك أن تلمسها بعينيها و قلبها .

جلس فتحي يراقبها بابتسامة، ثم قال وهو يحاول التخفيف من توترها :

تبدين كطفلة تتهيأ لرحلة مدرسية. لا تقلقي، سأكون بجانبك طوال الوقت.

ابتسمت بخجل، ثم قالت وهي تغلق الحقيبة:

أشعر أني أقترب من جزء مفقود مني... وكأنني كنت نصف إنسانة، والآن أبحث عن النصف الآخر.

سوف تشعرين بالسعادة حينما يلتئم الشمل .

X

حين صعدا إلى الطائرة، أمسكت فتون بيد زوجها بقوة، حتى شعر بأصابعها تتصبب عرقاً. همست له بصوت مرتجف :

هذه أول مرة أركب فيها طائرة... أشعر أن قلبي سيتوقف الآن .

ابتسم فتحي وربت على يدها بحنان :

لا تخافي، اقرأئي بعض الآيات، وسترين أن الساعتين و النصف ستمران بسرعة. هذه ليست مجرد رحلة سفر، بل رحلة روحك نحو جذورها.

أغمضت عينيها، واستعادت صورة أبيها في لحظاته الأخيرة، حين كان يلهث بالكلمات ليخبرها بأمر أختيها. شعرت أن الطائرة لا تحلق في السماء فقط، بل تحلق في ذاكرتها أيضاً، تعيدها إلى طفولتها، إلى الحكايات المؤجلة، وإلى لقاء لم يحدث بعد.

X

في مطار طرابزون، كان الهواء بارداً منعشاً، يحمل رائحة البحر الممتزجة برطوبة الجبال . وقفت فتون أمام ضابط الجوازات، وهو يتفحص أوراقها. رفع رأسه إليها، وتوقف لثوانٍ قبل أن يقول مبتسماً :

أنتِ تركية الأصل، أليس كذلك ؟

ابتسمت، وفي عينيها خليط من الفخر والدهشة :

نعم، كان أبي تركياً هاجر إلى مصر... وجئت الآن لأزور أهلي في ريزا. وهذا زوجي المصري، فتحي.

نظر الضابط إلى فتحي ومد يده لمصافحته قائلاً :

أهلاً بك في وطنك الأول يا سيدتي، وأهلاً بك يا سيد فتحي في وطنك الثاني .

X

على الطريق المؤدي إلى ريزا، كانت الجبال تزداد ارتفاعاً، والأنهار تجري كالخيوط الفضية بين الحقول. جلست فتون بجانب النافذة، تحدق في المشهد بعيون دامعة، كأنها تعود إلى بيتٍ لم تعرفه قط. كل شجرة، كل حجر، كان يهمس لها:

هنا جذورك.

التفت إليها فتحي ، وهو يبتسم ، وقال برفق :

بماذا تفكرين ؟

قالت بصوت خافت كالهمس :

أفكر... كيف سيكون لقاؤنا ؟ هل ستفتحان لي قلبيهما، أم ستغلقان الأبواب في وجهي؟

أمسك بيدها مجدداً وقال :

مهما حدث، أنت لستِ وحدك. حتى لو وجدتِ جداراً من الجفاء ، سأكون أنا الباب الذي تعبرين منه إلى الأمل .

نظرت إليه طويلاً ، ثم ابتسمت ابتسامة امتنان، وكأنها وجدت في حبّه الوطن الذي لم يهجرها يوماً.

X

حين وصلت السيارة إلى مشارف القرية، شعرت فتون أن خطواتها أثقل من قدرتها على المسير. كانت تتقدم ببطء ، كأنها تخشى مواجهة قدرها . ارتجفت وهي تطرق باب البيت الكبير، بينما فتحي يقف بجوارها يشدّ على يدها.

فتح الباب، وظهرت امرأة في الخمسين تقريباً، ملامحها قريبة من ملامح فتون، حتى خُيّل لفتون أنها ترى انعكاساً لوجهها في المرآة.

تجمدت الكلمات على شفتيها، ثم همست

أنا... فتون. ابنة أبيكنّ... جئت من مصر حسب وصية أبي لي .

ساد صمت طويل، قبل أن تترقرق الدموع في عيني المرأة، وتفتح ذراعيها قائلة:

أختي... كنا ننتظرك منذ سنوات بعيدة .

في تلك اللحظة، انهار الجدار الذي كان يحاصر قلب فتون، ووجدت نفسها بين ذراعي أختها، تبكي كما لم تبكِ منذ رحيل أبيها.

أما فتحي، فوقف بعيداً قليلاً، يبتسم بارتياح، كأنه يرى زهرة نادرة وجدت أخيراً تربتها الأصلية.

X

ذلك المساء، جلست فتون في فناء البيت، تستمع إلى حكايات أختيها عن طفولتهما، عن أبيها الذي ظلّ يذكرها حتى آخر لحظة. شعرت أن حياتها القديمة تتصلب الآن بجذور جديدة، وأن قلبها لم يعد منقسماً بين ماضٍ مجهول وحاضر ضائع.

رفعت نظرها إلى السماء، وقالت في سرّها:

أبي... لقد عدتُ إليك، وعدتُ إلى نفسي.

ابتسمت، وارتشفت من كوب الشاي التركي الساخن الذي وضعته أختها أمامها، وكأنها ترتشف طعماً جديداً للحياة، طعماً لم تعرفه من قبل.

في شاطئ الذاكرة اعترافات فتون

انفضّ السامر بعد أن غادر رئيس الشرطة ورجاله ، وتهاوى الصخب فجأة كجدارٍ من ورق ، ليخلف وراءه سكونًا كثيفًا ، كأن المكان حبس أنفاسه دفعة واحدة. لم يبقَ سوى همهمة الموج البعيد ، ونبض القناديل المرتعشة في مهبّ النسيم ، ورائحة الشاي الساخن الممتزجة بملح البحر.

في الخيمة المطلة على الشاطئ ، جلست الأخوات الثلاث متقابلات ، في شبه دائرة ، وإلى جوارهن فتحي ، زوج فتون ، بينما وقفت وصيفات الدار خلفهن كظلالٍ وديعة ، يتناوبن الخدمة بصمتٍ مدروس. كانت أكواب الشاي تنتقل من يدٍ إلى أخرى في طقسٍ يشبه الصلاة ، وثمار الفاكهة تتلألأ على الموائد الصغيرة كنجومٍ سقطت من السماء ، واستقرت على أطراف الليل.

ساد الصمت لحظاتٍ بدت أطول من حقيقتها ، حتى قطعتها ديلبارا ، الأخت الوسطى ، بصوتٍ خافتٍ يقطر وجعًا دفينًا:

لم أرَ أبي قط... لا صورة واحدة له في قصرنا تُذكّر به. كأن أمي تعمّدت أن تمحوه من حياتنا ، من ذاكرتنا ، من الجدران ، وحتى من الهواء الذي كنا نتنفسه.

كان صوتها يخرج مترددًا ، كأنه يتعثر في طريقه بين صدرها وشفتيها. بدت كمن يحفر قبرًا داخل الكلمات ، ويهيل عليه تراب الحنين.

رمقتها فتون بدهشةٍ بالغة ، وكأن السؤال الذي سكن أعماق أختها أيقظ فيها أشباحًا نائمة :

ربما أجد في حقيبتي صورة له... وإن لم أجد ، فسأرسل إليك صورة من ألبومي القديم. لديّ بعض اللقطات التي كان يحتفظ بها أبي في درجٍ سري ، كأنها كنوز محرّمة.

تنهدت جيلان ، الأخت الكبرى ، وهي تحدّق في وهج القنديل ، كأنها تحاول أن تستخرج من الضوء ملامح غابت منذ دهور:

أما أنا، فلا أذكر منه سوى أطيافٍ باهتة ، وخيالٍ شاحبٍ كالشبح. رحل وأنا في الرابعة... كل ما علق بذاكرتي أنه كان لا يزور البيت إلا نادرًا ، وإن حضر ، كنا أنا وأمي غارقتين في النوم ، كأن اللقاء بيننا وبينه كان محرّمًا حتى في الأحلام.

ساد صمت من جديد ، أثقل من سابقه. صمت يشبه الوقوف على حافة هاوية داخل النفس.

ابتسم فتحي بهدوء ، وقد أدرك أن هذه اللحظة تخصّهن وحدهن ، فاستأذن برقة:

سأترككن لتبحرن في أسراركن ، في ذكرياتكن .

ومضى بخطواتٍ هادئة ، تاركًا خلفه فضاءً أنثويًا مكتظًا بالحنين والأسئلة المؤجلة.

ما إن غاب، حتى بدأت فتون تستحضر حكايتها ، كأنها تنفض الغبار عن صندوقٍ قديم من الذاكرة ، صندوقٍ امتلأ بصورٍ وروائح وأصواتٍ تعاند النسيان.

قالت بصوتٍ ينساب ببطء ، كأنه يخشى أن يوقظ الألم:

كان أبي ، رحمه الله ، رجلًا عصاميًا. بدأ حياته في الغربة بمحلٍ صغير للملابس، دكانٍ ضيقٍ يكاد لا يسع أحلامه. لكنه كان يحمل في صدره بحرًا من الطموح ، فامتد حلمه شيئًا فشيئًا ، حتى صار مصنعًا يضج بالحياة ، ثم مصانع ، ثم محلات ، ثم عالمًا كاملًا من التجارة والعمل.

سكتت لحظة ، كأنها ترى المشهد أمام عينيها ، ثم تابعت:

تنوعت أنشطته كما تتنوع أمواج البحر ، وكلما اتسع رزقه ، اتسع معه قلبه. أنشأ مصنعًا للمربى الجاهزة ، وما ميّزه عن السوق رخص أسعاره وجودة صنعه. كان يؤمن أن البركة في العدل ، وأن المال لا قيمة له إن لم يكن جسرًا نحو كرامة الآخرين.

أما أمي، رحمها الله ، فكانت حكاية أخرى، حكاية من الصمت والصبر. فتاة ريفية من تركيا ، تعرف عليها أبي أثناء تجوله ببضاعته على المنازل. أحبّها ببساطتها ، وتزوجها ، ثم صارت سجينة البيت ، كما قيل لي. لم تشكُ ، لم تثر ، لم تطلب شيئًا لنفسها. تفرغت لتربيتي وحدي ، غرست فيّ حب لغتنا ، وحين رحلت مبكرًا ، تركت في داخلي فراغًا بحجم السماء.

توقفت فتون ، وارتعشت نبرتها قليلًا :

خصص لي أبي غرفة في كل مصنع، أعيش فيها مع مربيتي. كنت أسمع ضجيج الآلات كأنه نشيد طفولتي. ثم حين اشتد عودي ، بنى لنا قصرًا عظيمًا. عشنا فيه نحن الثلاثة: أنا ، وأبي ، والذكريات.

كان القصر واسعًا ، لكن الروح فيه كانت تضيق كل يوم. جدرانه شاهقة ، لكن القلب بين جنباته كان يتقلص.

بعد أن أنهيت تعليمي الجامعي ، أخذني أبي إلى كل مكان يملك فيه عملًا: مصانع ، محلات، مكاتب... كأنه كان يسلّمني مفاتيح العالم. كان يقول لي :

" كل هذا لكِ ، ولكن الأهم أن تحفظي الإنسان في داخلك ".

ابتلعت ريقها ، وتابعت:

وحين توفي ، ترك لي كل شيء. غمرتني المسؤوليات حتى نسيت نفسي. أصبحت سجينة قصر واسع يخلو من الروح. كنت أتحرك بين الأروقة كطيف ، أوقّع الأوراق ، وأصدر الأوامر ، وأعود إلى غرفتي لأحتضن الفراغ.

تغير صوتها ، فصار أشبه باعترافٍ مرّ:

وفي أحد الأيام ، بينما كنت عائدة بسيارتي ، صدمت شابًا. لم أستوعب ما حدث. توقفت الدنيا للحظة. حملته إلى القصر لا إلى المستشفى... كأن شيئًا في داخلي أراد أن يحتفظ به قريبًا. كان مصابًا بكسورٍ خطيرة. استدعيت الطبيب ، وأشرفت على علاجه بنفسي. انتظرت أن يسأل عنه أحد ، فلم يأتِ إلا فتى صغير قال إنه يعمل معه ، ثم اختفى.

ساد الصمت، وارتفعت أنفاس الأخوات.

وبعد يومين ، جاءت الشرطة تبحث عنه ، فاتهموه بقتل رجل. كنت قد أخبرت الضابط أنه زوجي لأحميه . لم أفكر ، لم أحسب العواقب. وحين سمع هو ذلك ، نظر إليّ طويلًا ، ثم قال بهدوء موجع : إذن ، لنجعل الكذبة حقيقة.

ارتعشت شفتاها:

وهكذا تزوجنا. كنت أطعمه بيدي، كطفلٍ فقد أمه. هو نفسه قال لي ذلك. شعرتُ معه بأنني أعيش حياتي من جديد. لكنه ظل متحفظًا ، لا يقترب مني ، كأنه يخشى أن يلوث طهارته بأحلامي. إلى أن جاءت ليلة لم أحتمل بعدها الصمت. دخلت حجرته ، احتضنته ، وقلت : أنت زوجي ، وسأكون لك ابتداءً من هذه الليلة.

انهمرت الدموع من عينيها:

وهكذا أصبحت له زوجة بحق... واليوم ، وأنا في هذا العمر، أحمل في أحشائي طفلًا منه.

شهقت جيلان ، وكأن السؤال انفجر في صدرها :في هذا السن ؟ لكنها آثرت الصمت. أما ديلبارا فمدت يدها وربتت على كتف أختها بحنانٍ يشبه الدعاء.

تابعت فتون بصوتٍ أكثر هدوءًا:

جعلته شريكًا لي في كل شيء ، حتى في أحلامي . حتى اقترح أن أبني مولًا يجمع محلات أبي المتناثرة . ومع ذلك، بقي داخلي فراغ آخر... كان أبي قد أخبرني أن لي أختين في تركيا. ظل هذا السر يطاردني. وحين صارحت فتحي ، لم يتردد. حجز لي تذكرة السفر... وها أنا اليوم بينكما.

ارتفع صوت الموج الصاخب من بعيد ، كأن البحر نفسه يصغي إلى اعترافها ، ويحتفظ به في أعماقه ، ليعيده يومًا على هيئة مدٍّ عارم.

نهضت جيلان وهي تتثاءب وقد أثقلها الليل:

لقد انتصف الليل... تعالين نؤجل ما تبقى إلى الغد.

تفرّقن بخطى متثاقلة من أثر النعاس ، وبقيت الخيمة تغرق في صمتٍ شاعري ، كأنها تحفظ سرّ الحكاية حتى يطلع الفجر.

لكن الليل لم يكن ليلًا عاديًا. كان ليل اعترافات ، وليل أسئلة معلّقة ، وليل تصالحٍ مع جراحٍ قديمة. في غرفهن ، لم تنم أيٌّ منهن سريعًا. كل واحدة كانت غارقة في بحرها الخاص.

فتون كانت تحدق في سقف الغرفة، ترى فيه وجوهًا تتداخل: وجه أبيها ، وجه أمها ، وجه فتحي ، وملامح طفلٍ لم يولد بعد. شعرت للمرة الأولى أن حياتها لم تكن إلا سلسلة من المصادفات التي تحولت قسرًا إلى أقدار. تساءلت : هل نحن من نختار طرقنا ، أم أن الطرق تختارنا ثم تسحبنا من أطراف أرواحنا ؟

جيلان جلست قرب النافذة، تتأمل خط الأفق حيث يذوب البحر في السماء. كانت تفكر في أبيها الغائب ، في تلك المساحة البيضاء من الذاكرة التي لم تستطع يومًا أن تملأها. أحست بأن وجود فتون أعاد فتح جرحٍ قديم ، لكنه في الوقت نفسه منحها فرصة للشفاء. فربما لا يكون الأبُ شخصًا فقط ، بل فكرة ، وجذرًا ، وانتماء.

أما **ديلبارا** فاستلقت على سريرها، وعيناها مفتوحتان على عتمة الغرفة. كانت تسمع نبض قلبها كأنه طبول حرب. أدركت أن حياتها ، بكل ما فيها من استقرار ظاهري ، تخفي نقصًا جوهريًا: صورة أبٍ لم تره ، ولم تلمسه ، ولم تسمع صوته. أحست أن هذه الليلة هي بداية بحث طويل عن ذاتها.

وفي الخارج، كان البحر يواصل غناءه الأزلي ، كأن أمواجه تحفظ حكايات البشر ، وتعيد صياغتها في كل موجة جديدة.

مع بزوغ الفجر ، بدت الخيمة كأنها خرجت من حلمٍ عميق. خيوط الضوء الأولى تسللت عبر القماش ، لتداعب الوجوه النائمة ، وتوقظ في القلوب رغبة جديدة في البوح. كان يوم جديد على وشك أن يبدأ ، محمّلًا بوعد اللقاء ، وجرأة المواجهة ، وإمكانية المصالحة.

في تلك اللحظة، أدركت الأخوات الثلاث أن ما جمعهن لم يكن مجرد دمٍ مشترك ، بل وحدة مصير. وأن الحكاية التي بدأت باعتراف ، لن تنتهي إلا بإعادة كتابة الذات ، وبناء معنى جديد للعائلة ، وللحب ، وللخسارة.

وهكذا، على شاطئ الذاكرة، حيث يتعانق الموج والرمل ، بدأت فصول قصة أخرى... قصة البحث عن الجذور، وعن وطنٍ يسكن داخل القلب قبل أن يسكن على الخرائط.

ديلبارا

سيرة امرأةٍ تعيش فوق الحزن

كانت ديلبارا تقف عند حافة الخمسين بعامٍ واحد ، لكن الزمن بدا وكأنه يتواطأ معها ، فيمنحها ملامح أقلَّ من عمرها ، وأكثر من تجربتها. لم يكن وجهها شابًا بالمعنى الساذج ، بل كان ناضجًا كفاية ليحمل ذاكرة طويلة دون أن ينكسر . خطوط الزمن عند عينيها لم تكن ندوبًا ، بل إشارات طريق ، تشبه علاماتٍ سرية تركتها الحياة لتدلّ على عمقٍ صامت . أنوثتها لا تصرخ ولا تتباهى ؛ هي أنوثة تمشي على أطراف الضوء ، تكتفي بأن تُرى دون أن تطلب التصفيق . وشعرها الذهبي ، المنسدل على كتفيها بانكسارٍ رقيق ، كان أشبه بستارٍ يفلتر قسوة العالم قبل أن تصل إلى روحها.

أما عيناها الخضراوان ، فكانتا كنافذتين مفتوحتين على طفولةٍ لم تكتمل ، وعلى حكمةٍ نضجت قبل أوانها. فيهما دهشةٌ مستمرة ، وكأنها لم تفقد بعد قدرتها على الإعجاب ، رغم ما رأت ، ورغم ما فقدت. كانت تنظر إلى الأشياء كما ينظر شاعرٌ إلى التفاصيل الصغيرة ، فتمنحها معنى إضافيًا ، وتجعلها أكثر احتمالًا.

حين جلست أمامي لتروي ، لم تبدأ من الجرح ، ولم تختر الشكوى مدخلًا. بدأت من الداخل ، من تلك المساحة التي يختلط فيها

الصمت بالتأمل. صوتها لم يكن عاليًا ، بل دافئًا ، ينساب كالماء فوق حجرٍ قديم ، يصقله دون أن يكسره.

قالت، وهي تحدّق في نقطةٍ غير مرئية :

أمي... كانت أمًا استثنائية ، لكنها لم تكن عادلة. أحبت جيلان كما لو أنها الوحيدة لديها ، ونسيتني كما لو أنني تفصيلة جانبية في الصورة. لم أشعر بالحقد ، ولا بالحسد. في البداية ، بكيت بصمت ، ثم اكتشفت شيئًا غريبًا: أن نسيانها لي منحني مساحةً خاصة . كأن الله ، في عدله الخفي ، أراد أن يهبني الحرية بدلًا من الحنان.

صمتت لحظة ، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة ، فيها شيء من التسليم ، وشيء من الفخر الهادئ.

تعلمتُ أن أكون سند نفسي أم أكون نفسي. صنعت من دراستي ملجأً احتمي فيه، ومن الكتب وطنًا مؤقتًا أعيشه. كنت أهرب إليها كلما ضاق بي البيت، وكلما شعرت أنني ظلٌّ بلا صوت. ، أنني أنسانة بلا وجود ,

منذ طفولتها ، كانت ديلبارا الأولى في الصف الدراسي ، لا بدافع المنافسة ، بل بدافع النجاة. كانت تشعر أن التفوق ليس امتيازًا ، بل ضرورة وجودية ، طريقة للبقاء في عالم لا يمنحها دفئه بسهولة. في الكتب وجدت أمًا بديلة ، وفي الأسئلة وجدت بيتًا أوسع من جدران الطفولة.

حين رحلت أمي ، فجأة وبلا وداعٍ كافٍ ، انقلبت الأدوار. أصبحت جيلان هى الأم ، لا القائدة. احتوتني كما لم تفعل من قبل ، وربما أدركت متأخرة أنها قصّرت. لكن ديلبارا لم تفتح دفاتر العتاب ؛ كانت قد تجاوزت تلك المرحلة ، وبنت لنفسها جسرًا من الفهم.

دخلت كلية التجارة لتقف إلى جوار أختها ، ثم تابعت دراسة القانون. عرضوا عليها أن تكون معيدة ، فرأت في الأمر اعترافًا خجولًا بقدرتها. لكنها لم تتعلّق بالمناصب. كانت ترى أن القيمة ليست في اللقب ، بل في المسار.

قالت لي ذات مرة :

المناصب زينة ، وأنا لا أحتاج الزينة. أحتاج فقط إلى ما يطمئن قلبي.

ثم درست الاقتصاد ، لا بدافع الطموح وحده ، بل بدافع الفضول. كانت تحب أن تفهم كيف يتحرك العالم ، كيف تُصاغ المصائر من أرقام ، وكيف يمكن لقرار صغير أن يقلب حياة كاملة. تفوقت مجددًا ، وعُرض عليها أن تعود معيدة ، فوافقت لفترة ، ثم انسحبت بهدوء.

الغربة... كانت قاسية. ليست غربة المكان ، بل غربة الروح. كنت أشعر أنني أترك جزءًا مني خلفي كلما ابتعدت . فاخترت العودة. الأرض التي نشأت عليها كانت تناديني بصوتٍ لا يسمعه سواي.

في تلك العودة ، اتخذت ديلبارا قراراتها الكبرى. قررت أن تبقى قريبة من أختها ، أن تحمي ما تبقى من الأسرة ، وأن تحيا حياة منظمة ، بلا صخبٍ زائد.

لم تُقحم في حياتها صداقاتٍ ذكورية ، لا خوفًا ، ولا تعقيدًا ، بل حرصًا. كانت تخشى أن يربك أحد توازنها الدقيق. رفضت أكثر من عرض زواج ، ليس لأنها تكره الحب ، بل لأنها كانت تخاف من خيباتٍ تشبه تلك التي رأتها في حياة أختها.

زوج جيلان الأول ، كما وصفته ، كان « وحشًا في هيئة إنسان ، شيطتان ». ترك في ذاكرتها ندوبًا لا تُرى. كان نموذجًا مبكرًا للقسوة ، درسًا قاسيًا في أن القوة قد تختبئ خلف قناع اللطف . أما الثاني ، فكان غائبًا حتى وهو حاضر ، يعيش بجسدٍ بلا روح.

تلك التجارب لم تزرع في ديلبارا كراهية للرجال ، بل حذرًا فلسفيًا من الاقتراب غير المحسوب. بنت حول نفسها سورًا من المبادئ ، لا ليعزلها ، بل ليحمي هشاشتها النبيلة.

كانت تقول لنفسها :

المرأة لا تحتاج إلى رجل ليكتمل وجودها، لكنها تحتاج إلى أمان. وحين يغيب الأمان ، يصبح الانسحاب حكمة.

ومع ذلك، لم تكن متحجرة. في داخلها حنانٌ دافئ ، يظهر في علاقتها بأختها ، وفي اهتمامها بتفاصيل حياة الآخرين. كانت تستمع أكثر مما تتكلم ، وتلاحظ أكثر مما تُبدي. تعرف متى تبتسم ، ومتى تصمت ، ومتى تمد يدها دون أن تجرح كبرياء أحد.

كانت حياتها اليومية أشبه بطقسٍ تأملي : تستيقظ مبكرًا ، ترتب غرفتها بعناية ، تحضر قهوتها بهدوء ، تقرأ فصولًا من كتاب ، ثم

تنغمس في عملها. لم تكن تحب الفوضى ، لا في البيت ، ولا في الروح. كل شيء عندها يجب أن يكون في موضعه ، حتى الأحزان.

وحين تسألها عن السعادة ، لا تعطيك تعريفًا جاهزًا. تقول فقط:

أنا مرتاحة البال. وهذه أعلى درجات السعادة التي أعرفها .

في داخلها معركة طويلة مع الصمت. لم تكن درامية ، لكنها كانت مستمرة. كانت تقاوم وحدتها بالكتب ، وتقهر خوفها بالمعرفة ، وتداوي خيباتها بالتسامح. لم ترفع صوتها يومًا لتشتكي ، ولم تطلب دعمًا علنيًا ، لكنها بنت شبكة أمان داخلية ، من إيمانٍ عميق بأن كل شيء يحدث لسبب.

سألت نفسي كثيرًا : ما الذي شكّل هذه المرأة ؟ أهو الحرمان المبكر ؟ أم وعيٌ سبق سنّه ؟ أم خوفٌ جميل من السقوط ؟ ربما كل ذلك معًا. لكنها لم تبدُ يومًا ضحية. كانت أقرب إلى ناجية محترفة ، تعرف كيف تلتقط نفسها قبل أن تهوي.

كانت ترى التضحية شكلًا من أشكال الامتلاء ، لا الفقد. حين تنازلت عن فرصٍ مهنية لتبقى إلى جوار أختها ، لم تشعر أنها خسرت. شعرت أنها اختارت مسارًا آخر للنجاح : نجاحًا أخلاقيًا ، إنسانيًا ، لا يُقاس بالأرقام.

وفي هدوئها ، كانت ديلبارا أشبه بمنارةٍ صغيرة في ليلٍ طويل. لا تصدر ضوءًا مبهرًا ، لكنها ثابتة ، تشير للطريق دون أن تطلب الامتنان.

وقبل أن تغادر ، قالت جملتها الأخيرة ، بصوتٍ خفيض ، لكنه ممتلئ:

قد لا أملك حياة مثالية ، لكنني أملك حياة أستطيع أن أحملها دون أن تنكسر يداي.

وقفت ، وعدّلت وشاحها ، وابتسمت كما لو أنها تصالح العالم للمرة الأخيرة. وفي تلك الابتسامة ، كان يمكن أن ترى امرأة اختارت السلام على الصخب ، والعمق على اللمعان.

ومن خلف عينيها الخضراوين ، ظل سؤالٌ صغير يتوهّج : هل السعادة التي نصنعها من القيود والاختيارات الصارمة سعادةٌ كاملة ؟ أم مجرد اتفاقٍ مؤقت مع الواقع ؟ لكنها لم تكن في حاجة إلى إجابة. كانت قد اختارت أن تعيش ، لا أن تحلل.

وفي آخر المشهد ، لمعت في ذاكرتها صورة أختها فتون ، التي وهبت حياتها للعمل ، ثم اقتنصت فرصة الزواج لتبدأ فصلًا جديدًا. رأت فيها انعكاسًا آخر لذاتها : امرأة تعرف متى تعطي ، ومتى تمضي.

وهكذا، انسحبت ديلبارا من الغرفة ، تاركة خلفها أثرًا شفيفًا ، كأنها لم تكن امرأة من لحم ودم ، بل فكرة ناعمة عن الصبر ، وعن القوة التي لا تُرى ، وعن حياةٍ يمكن أن تكون بسيطة... لكنها عميقة بما يكفي لتحتوي قلبًا كاملًا.

قلب جيلان بين النيران

في تلك الليلة التي كان القمر فيها شاحبًا كوجه امرأةٍ خرجت للتو من جنازة روحها ، جلست **جيلان** على أريكةٍ عتيقةٍ مكسوّةٍ بالمخمل الأزرق ، مرتدية جلبابًا أصفر فاتحًا منقّطًا بقلوبٍ حمراء ، وطرحةً بيضاء انسدلت على كتفيها كوشاحِ سلامٍ هشّ. بدت كالملاك ، لا لأن ملامحها كانت نقيّة فحسب ، بل لأن في عينيها ضوءًا غريبًا لا يعرفه إلا من عبروا جحيمًا ثم عادوا ليحكوا.

كان البيت غارقًا في صمتٍ كثيف ، صمتٍ يشبه تلك اللحظة التي تسبق سقوط المطر ، حين تتجمّد الأشياء في انتظار الانفجار. جلست فتون قبالتها ، وقد تشابكت أصابعها بقلقٍ طفوليّ ، بينما وقف فتحي قريبًا من الباب ، مترددًا، كأنه يخشى أن يقتحم مساحةً ليست له. أراد أن يستأذن ليترك النساء في حريتهن ، لكن جيلان أشارت إليه أن يبقى ، بنظرةٍ لا تحتمل الرفض ، قائلة بصوتٍ هادئٍ حادٍّ في آنٍ واحد:

ابقَ الليلة يا فتحي... ما سيُقال يحتاج شاهدًا ، لا قاضيًا.

جلس فتحي في صمت ، وعيناه تراقبان ارتعاشة الضوء فوق الجدران ، كأن الجدران نفسها تستعد لسماع اعترافٍ طويل.

تنفست جيلان بعمق ، ثم أغمضت عينيها قليلًا ، كمن يغوص في بئرٍ سحيق ليخرج منه بذاكرةٍ ملطّخة. وحين فتحت عينيها ، كان صوتها قد تغيّر ؛ صار أثقل ، مشبعًا بملح السنوات.

أمي... موهان... كانت قاسية حتى النخاع. لم تكن تعرف للّين طريقًا، ولا للرحمة بابًا. بعد أن هجرها زوجها ، ورحل إلى مصر هاربًا من صرامتها ، قامت بدور الأم والأب معًا ، لكنها اختارت أن تكون الأب المتجهم ، لا الأم الحنون. كلماتها كانت سياطًا ، وعيناها شررًا ، ومن يقف أمامها يشعر كأنه يقف أمام محكمةٍ بلا استئناف.

توقفت لحظة ، ثم تابعت ، وعيناها معلّقتان بسقف الغرفة كأنها ترى عليه مشاهد بعيدة:

حين بلغت السادسة عشرة ، لم تسألني عمّا أريد. قالت فقط:

ستعدّي... ستتزوجين من ابن عمك. حاولت أن أشرح لها أنني أريد الدراسة ، أنني أحلم أن أكون شيئًا آخر غير زوجةٍ تُساق إلى قصرٍ لا تعرف عنه شيئًا. لكنها لم تسمع. في أسبوعٍ واحدٍ ، تم كل شيء: العقد ، الزفاف، الدخلة... وكأن حياتي كانت صفقةً مستعجلة.

في داخلها ، كانت تلك الفتاة الصغيرة ما تزال تصرخ. كانت تسمع صدى خطواتها المرتعشة وهي تدخل القصر لأول مرة ، بفستانها الأبيض الذي بدا لها ككفنٍ فاخر. القصر ، بجدرانه العالية وأبوابه الثقيلة ، لم يكن بيتًا ، بل فمًا هائلًا يستعد لابتلاعها.

لم ينتظر أن أبدّل ثيابي... هجم عليّ كوحش. اغتصبني. صرخت ، بكيت، توسلت... لكن من يسمع ؟ القصر كان شبه خالٍ من الخدم ، والليل كان متواطئًا. شعرت أن جسدي لم يعد لي ، وأن روحي تُسحب مني ببطء.

سكتت ، وارتجفت شفتاها. مدت فتون يدها لتلمس كف أختها ، فقبضت جيلان على أصابعها كأنها تتشبث بطوق نجاة.

أربعة أشهر من العذاب اليومي. حتى جاءت أمي لأول مرة. أخذتني إلى المستشفى. وبعد تحاليل طويلة ، قالت الطبيبة إن هناك تهتكًا في الرحم ، وإنني أصبحت عاقرًا... كلمة واحدة ، لكنها كانت كرصاصةٍ أخيرة. عاقر. كأن أنوثتي اختُصرت في رحمٍ مكسور.

وفي داخلها ، كانت جيلان تسمع صوت الطبيبة يتردّد كجرس جنازة ، وترى وجه أمها وقد تجمّد ، لا حزنًا عليها ، بل خوفًا من الفضيحة ، من نظرة المجتمع ، من كلام الناس.

كنت أذهب إلى المستشفى كل يوم ، وأمي ترافقني. كانت تساعد الممرضة ، تراقبني ، لكنني لم أشعر يومًا أنها تبكي عليّ. كنت أرى في عينيها حساباتٍ باردة ، كأنها تخطط لخطوةٍ قادمة.

سكتت قليلًا ، ثم قالت بصوتٍ مبحوح:

علمت بخيانته. كان الأمر كأن أحدهم مزّق آخر قماشة تستر جسدي. استأجرت حارسًا يراقبه. أكد لي أنه يزور عشيقته... ابنة خالتي. لم أبكِ. لم أصرخ. شعرت فقط بفراغٍ واسعٍ يتمدد داخلي.

في تلك الليلة ، لم تنم. جلست تحدّق في المرآة ، وسألت نفسها: من أنتِ الآن ؟ زوجةٌ مغتصبة ، امرأةٌ عاقر ، خائنةٌ في نظر المجتمع إن ثارت ، وضحيةٌ صامتة إن سكتت. وفي الصباح ، اتخذت قرارها.

ذهبت قرب قصرها... وبمساعدة رجالٍ مخلصين لي ، وخادماتٍ داخل القصر ، سكبت البنزين وأشعلت النار. احترق القصر ، واحترق فيه زوجي ، وعشيقته ، ووالدتها ، وبعض الخدم.

ترددت الكلمات في الغرفة كطلقاتٍ بطيئة. فتحي ابتلع ريقه ، وفتون شهقت بخفوت.

التحقيقات استمرت شهرًا. وفي النهاية ، قُيّدت الحادثة ضد مجهول. عدت إلى قصر أمي ، لكنني لم أفرح. لم أشعر بالانتصار. كان داخلي خرابٌ أكبر من أي حريق.

توقفت ، ثم ابتسمت ابتسامةً شاحبة:

لم يمضِ وقت طويل حتى أخبرتني أمي أنني سأتزوج أخاه. كما تقول العادات. رفضت. توسلت. لكنها أصرت. تزوجته وأنا أتوقع الشر ، لكنه لم يلمسني. كان ينظر إليّ كمن ينظر إلى شبح. صبرت ، حتى علمت أنه ورث تجارة أخيه... تجارة السلاح والمخدرات.

في تلك اللحظة ، شعرت جيلان أن العالم يضع في يدها سكينًا جديدًا. وكأن القدر يختبر إلى أي مدى يمكن للإنسان أن يهبط قبل أن يتلاشى.

عرفت موعد تسلم البضاعة ، وأبلغت الشرطة. حاصروهم ، اندلعت اشتباكات عنيفة ... قُتل معظم أفراد العصابة ، ومن بينهم زوجي.

سكتت. كان الصمت هذه المرة أثقل من كل ما سبق. صمتٌ يشبه المقابر حين يهدأ الزوار.

حاولت أمي أن تعيدني إلى قصرها. كنت أتهرب. كنت أشعر أن ذلك القصر يختنق بي. أرسلت إليّ رسالة أنها مريضة وتريد رؤيتي. قلت لمن جاءني : لن أعود إلى ذلك القصر اللعين. حضرت أختي ترجوني ، فرفضت. كنت أعرف أنها تسعى لزيجةٍ ثالثة.

في داخلها ، كانت صورة أمها تتنازع مع صورة الطفلة التي كانت يومًا ما تتشبث بثوب تلك المرأة القاسية . كانت تريد أن تكرهها ، لكنها لم تستطع أن تمحو حنينًا قديمًا ، حنينًا مشوّهًا ، لكنه موجود.

ثم قالت لي أختي إن أمي ماتت بسكتة قلبية... نتيجة غضبها مني. ظننتها تكذب. لكن إحدى الخادمات أكدت الخبر. ركضت إلى القصر... وجدتها ممددة ، ساكنة ، كأنها أخيرًا قررت أن تصمت.

ارتعش صوتها:

تركت وصية... ألا أُجبر أختي الصغيرة على شيء ، وأن أعتني بها. كأنها في موتها فقط أدركت معنى الرحمة.

سكتت جيلان ، ثم رفعت رأسها. في عينيها دموعٌ لم تسقط.

عشت بعدها أعتني بأراضيّ وأملاكي وأختي. تركت كل شيء خلفي. تقدم لي كثيرون طامعين في ثروتي وقصوري الثلاثة. كنت أرى الجوع في عيونهم ، لا الحب. رفضتهم جميعًا. اخترت الوحدة... واخترت أختي.

تنفست بعمق:

الآن أعيش سعيدة معها. كنت أتمنى أن تكوني معنا يا فتون... لكنني لم أكن أعرف اسمك. انقطعت الصلة بيننا وبين أبي.

قالت فتون ، وقد اغرورقت عيناها:

سأزوركم ، وتزورينني في مصر. لتتعرفي إلى الأملاك التي تركها أبي لنا. نمّيتها بفضل زوجي.

ابتسمت جيلان:

سأرسل لكِ ديلبارا أسبوعًا لتزور مصر.

قالت فتون بحنين:

يا ليت تأتين أنتِ أيضًا.

تلافت الهمسات ، وبقيت العيون متشابكة. كان الماضي يقف في منتصف الغرفة ، شبحًا ثقيلًا ، بينما يلوّح المستقبل من بعيد ، خجولًا ، كطفلٍ يخشى الاقتراب.

في تلك الليلة ، لم ينم أحد. كانت الأرواح ساهرة ، تحرس ما تبقى من الضوء. وكانت جيلان ، في صمتها الطويل ، تعيد ترتيب حياتها من جديد. لم تعد تلك الفتاة التي دخلت القصر بفستانٍ أبيض. صارت امرأةً تعرف أن النار يمكن أن تكون خلاصًا ، وأن القسوة قد تلد حكمة ، وأن القلب ، مهما انكسر ، قادر على أن ينبض من جديد.

وفي الفجر ، حين تسلل الضوء عبر النوافذ ، أحست لأول مرة منذ سنوات أن صدرها يتّسع للتنفس. كأن الليل الطويل انتهى ، وكأنها أخيرًا ، بعد كل تلك القباب من النار ، وجدت ظلًّا تستريح فيه.

فتحي
جراح الطفولة و حوار البعث

في الليلة التالية ، جلس الجمع كما لو كانوا على موعد مع مصيرٍ جديد.

جيلان ارتدت جلبابًا ورديًّا هادئ اللون ، غطّت رأسها بشال أبيض يزيدها رقةً وخشوعًا.

أما ديلبارا ، فقد تأنّقت بجلباب لبنيٍ ينساب على جسدها، كاشفًا عن أنوثةٍ لا تخطئها العين.

أما فتون ، فكانت في جلبابٍ أخضر زرعي ، أنوثتها لا تخفيها حتى بطنها التي بدأت ترتفع قليلًا ، كأنها تحمل سرًّا جديدًا للعالم.

وفاجأهم فتحي بأن ارتدى لأول مرة جلبابًا أبيض ، كأنما أراد أن يعلن ميلادًا آخر لذاته التي أضناها الماضي.

ابتسمت ديلبارا ، بعينين يملؤهما مكرٌ طفولي ، وقالت بصوتٍ ينضح خبثًا رقيقًا:

" لقد سمعت قصصنا يا أخي فتحي ، وعرفت ما لم نبح به لأحدٍ من قبل . واليوم حان دورك يا أخي، لتكشف لنا أسرارك التي لا تعرفها حتى فتون

ضحك فتحي ضحكة قصيرة ، كأنها خرجت من قلبٍ مثقل ، ثم قال في براءة صادقة:

"لقد أخبرت فتون بكل شيء عن حياتي قبل الزواج . لم أخفِ عنها شيئًا ، أردت أن تكون علاقتنا قائمة على الصراحة

لكن جيلان مالت نحوه ، بنظرةٍ نافذة، وقالت في جدّية:

"أعرف أنك أخبرت فتون، لكننا نحن نريد أن نسمعها منك . قصتك ليست لك وحدك ، إنها قصة تُلقي بظلالها علينا جميعًا

ساد صمت قصير ، قبل أن يرفع فتحي عينيه إليهم ، نظرة عميقة كأنها تستحضر أرواح الماضي ، ثم قال ببطءٍ يقطر من قلبه اعترافًا:

*

"كانت طفولتي مقفرة... بعد موت أمي، انطفأ نبع الحنان من حياتي، وأصبحتُ في بيتٍ لا دفء فيه. زوجة أبي كانت قاسية حدّ أن العطف صار غريبًا على لساني. وحين مات أبي ، سقطت عليّ الدنيا دفعة واحدة. أخرجتني من المدرسة ، جعلتني أدير محل أبي مع صبيٍ صغير ، كأني خُلقْتُ لأكون خادمًا للحرمان

توقف لحظة ، كأن الصور تُهاجمه، ثم تابع بصوتٍ أشد خفوتًا :

"سمعت ذات يوم في المقهى عن امرأة قتلت زوجها بسمّ الفئران. لمعت الفكرة في رأسي ، لم أكن أدري أهو عقل طفلٍ متمرّد أم قلب جريح. أسرعت إلى العطار ، اشتريت السم ، وبدأت أضع قليلاً منه في طعامها وشرابها.

مرضت... تقيأت... ذهبت إلى المستشفى. أنقذتها جاراتٌ طيبات. توقفت حينها ، لكن شيطاني لم يهدأ. عدتُ من جديد أضع قطرات الموت في عصيرها. اشتد بها المرض ، أسقطت جنينًا لم يولد، وذبلت حتى ماتت بين يدي. لم أذرف دمعة ، بل شعرت أنني تحولت إلى شخصٍ آخر ، غريبٍ عن كل البشر

*

"لم أعد ذاك الطفل المقهور. صرتُ شيئًا آخر، كائنًا من غضبٍ وظلام.

بدأتُ أفرض سطوتي في الحي ، أجمع الأتاوات مع صديقين يتيمين ، اتخذتهما حراسًا لظلّي. صار الناس يخشون اسمي.

في يومٍ رأيت فتاة من الحي ، في مكانٍ مهجور ، مع شابٍ يلامس يدها. لم أفكر كثيرًا ، قررت أن أتزوجها. هى ردتني، لكنني هدّدتها بأبيها، فأصبحت زوجة رغمًا عنها.

لم أحبها ، لم ألمسها. كان البيت سجنًا آخر

*

"ثم ظهرت هي... فتون. كأن القدر أرسلها لتوقظ فيّ بقايا إنسان. صدمتني ، لا بكلماتها فقط، بل برعايتها. أخذتني إلى قصرها ، غسلت عني أدران الشارع الذي جئت منه. شعرت معها بدفءٍ افتقدته منذ موت أمي. كانت طوق نجاة ، أو لعله سراب ، لكنني تمسكت به بكل قوتي

قاطعته فتون بهدوء:

"لم أكن طوق نجاة لك وحدك يا فتحي... كنا معًا ، نبحث عن خلاصٍ مشترك

ابتسم فتحي ابتسامة شاردة ، كأنها اعتراف بحقيقةٍ مؤجلة ، ثم تابع:

"لكن الماضي لم يتركني.

جاءني صبي المحل يخبرني أن زوجتي، تلك التي أجبرتها على الزواج ، تلتقي بحبيبها القديم. طلبت من صديقَي أن يضرباه ، لعلها ترتدع. لكنها لم ترتدع.

ظلت تراه ، بالسرّ ، متحدّيةً كل شيء. لم أتحمل... أمرت بقتله. وحدث ذلك فعلًا. مات الرجل، في شقته، غدرًا.

اتهمتني زوجتي. ذهبت للشرطة ، أشارت إليّ. لكنهم وجدوني في فراش فتون مكسور الأرجل ، تشهد أنها زوجتي ، وأنني لم أبرح القصر. انقلبت القضية إلى مجهول. كأنني اختفيت من دائرة الجريمة

*

"بعدها قررت أن أتزوج فتون. لم ألمسها طويلًا ، كنت أراها صورة أمي. ثم بدأت العلاقة تنمو ، شيئًا فشيئًا. كانت فتون باب الخير الذي فتح لي طريقًا جديدًا. تركت البلطجة ، صرت أساعدها في أعمالها بجدّية. حوّلت صديقيّ إلى حراس لي و لها، وفتحت أبواب المول للفتيات فتيات الحى ، ليجدن عملًا شريفًا.

لم أعد ذلك الصبي المقهور ، ولا ذاك البلطجي العنيف. لكني أيضًا لم أتطهر من دم الماضي

ساد الصمت في الغرفة.

*

نظرت ديلبارا إلى فتحي بدهشةٍ ، عينان تلمعان بالخوف والإعجاب معًا:

"أكنتَ كل هذا يا فتحي ؟ بين الطفل المظلوم والقاتل الغامض ، كيف يسكن كل هؤلاء في جسدٍ واحد ؟ "

ابتسمت جيلان ، ابتسامة غامضة ، وقالت:

"هو لم يكن واحدًا ، بل كان شظايا إنسان. كل موتٍ في حياته ولّد شخصًا جديدًا: موت الأم أنجب اليتيم ، موت الأب أنجب الخادم ، موت حبيب الزوجة أنجب القاتل ، وظهور فتون أنجب الباحث عن الخلاص

رفعت فتون رأسها ، بصوتٍ أنثوي رقيق النبرات ، يحمل قوة غامضة:

"لكنه الآن يجلس بيننا ، ليس قاتلًا ولا بلطجيًا ، بل رجل يبحث عن معنى الحياة . وهذا ما يجعل قصته ليست مجرد اعتراف ، بل بداية أخرى

*

أطرق فتحي رأسه ، وقد بدا كأنما يتحدث إلى نفسه أكثر من الآخرين :

"أخشى أنني لست سوى سجينٍ لأشباح الماضي. كل فعلٍ فعلته كان يصرخ داخلي : انتبه... أنت لست حرًّا. هل كنت أقتل الآخرين ، أم أقتل صورتي المنكسرة فيهم ؟ أنا أبحث عن الغفران... لكن من يغفر لي ؟ أمي التي لم أودّعها ؟ زوجة أبي التي سمّمتها ؟ الفتاة التي أجبرتها على الزواج ؟ الرجل الذي قتلتُه ؟ أم أن الغفران لا يأتي من الخارج ، بل من أن أقبل نفسي ، أتصالح مع كل وجوه فتحي المتكسّرة ؟ " .

رفع رأسه فجأة ، عينيه دامعتين ، وقال كأنه يخاطبهم جميعًا :

"أريد أن أكون جديدًا. أن أكون رجلًا لا يخاف أن ينظر في المرآة. أن أرى في عيونكم صورة إنسان ، لا وحشًا

*

ساد صمت طويل، ثقيل كأن الزمن توقف.

جيلان وضعت يدها على كتفه، وقالت:

"كلنا نحمل أشباحًا يا فتحي، لكنّ الفرق بيننا وبين الظلام أننا نجرؤ على الحكي. وما فعلتَه الليلة أنك بدأت تشعل أول شمعة في طريقك

أما فتون فابتسمت، تلك الابتسامة التي حملت سرًّا قديمًا، وقالت:

"حديثك لم يكن لنا فقط ، كان لك أنت. أنت وحدك تعرف الآن أن الاعتراف ليس نهاية... بل بداية

وأما ديلبارا ، فقد اكتفت بنظرةٍ طويلة ، بين خوفٍ وفضول ، كأنها تتأمل رجلًا خرج للتو من كهفٍ مظلم إلى ضوءٍ لا يعرف هل سيعميه أم ينقذه.

*

جلسوا جميعًا في صمت، كأن الليل نفسه يستمع.

لم يكن حديث فتحي مجرد قصةٍ تُروى ، بل كان مرآةً تعكس وجوهًا متعدّدة: وجه الطفل اليتيم، وجه القاتل، وجه العاشق الباحث عن أمه في امرأة، ووجه الرجل الذي يريد أن يخلق نفسه من جديد.

وفي أعماق فتحي ظلّ السؤال يرنّ:

هل يمكن للإنسان أن يولد أكثر من مرة ؟ وهل الغفران هو منحة من الآخرين ، أم معركة نخوضها داخل أرواحنا ؟.

بينما الشموع تذوب ، كان الليل يكتب على جدران الصمت :

"كل إنسانٍ يحمل في داخله مقبرةً وطفلاً ، جلّ ما نحتاجه أن نقرر: أيهما نُحيي ؟ " .

ولادة متعسرة

سيمفونية الميلاد بين الخوف والرجاء

عاد فتحي وفتون هانم إلى قصرهما العتيق في الجيزة ، ذلك البيت الذي يشبه شيخًا هرِمًا ، يحمل في جدرانه ذاكرة قرون ، ويخفي في تجاويفه أسرار أجيالٍ تعاقبت ثم انطفأت. كانت النوافذ العالية تراقب النيل من بعيد ، كأنها عيون مفتوحة على زمن لا ينام ، والأبواب الخشبية الثقيلة تئن تحت وطأة الصمت. غير أن هذا الصمت لم يكن فراغًا ، بل كان امتلاءً كثيفًا بشيءٍ ما يتشكّل في الخفاء ، كنبضٍ يتعلّم الخطو نحو الضوء.

كان الهواء في القصر مشبعًا بانتظارٍ ثقيل ، انتظارٍ يشبه صلاةً طويلة بلا كلمات. خطوات فتون في الممرات الواسعة بدت مترددة ، كأنها تمشي فوق ماء ، و فتحى يراقبها من بعيد ، بعينين تشي بالخوف أكثر مما تشي بالحب. كان يعرف أن شيئًا ما في الأفق يستعد للانفجار ، وأن الأيام القادمة لن تشبه ما سبقها.

وفي فجر يومٍ بدا كأنه خرج لتوّه من رحم العتمة ، داهمت فتون أولى الانقباضات. ألمٌ خاطف ، ثم آخر ، ثم موجة كاملة من الوجع اجتاحت جسدها دفعةً واحدة. شهقت ، وتشبثت بحافة السرير ، بينما العرق يتسلل على جبينها مثل نديٍ حار. أحست بماء الرحم ينزلق فجأة ، كأن سدًا داخليًا انهار بلا إنذار.

فتحي... بدأ الأمر!

كان صوتها متكسّرًا، متقطع الأنفاس ، لكنه يحمل نبرة استغاثة لا تخطئها الأذن. اندفع فتحي نحوها كمن يقفز من حافة هاوية ، قلبه يضرب صدره بعنف ، وعيناه متسعتان بين الذهول والرعب. حاول أن يبدو ثابتًا ، أن يستعير من الرجولة ما يليق بالموقف ، لكنه في داخله كان طفلًا ضائعًا ، يواجه لغز الخلق للمرة الأولى.

ذ تنفسي بعمق يا فتون... الإسعاف في الطريق.

وضع يده على كتفها المرتجف ، فشعر برجفة جسدها تسري إليه ، كأن الألم ينتقل باللمس. كانت تصرخ ، لا تصرخ فقط من الألم ، بل من خوفٍ غامض لا تعرف له اسمًا. أمسكت بيده بكل ما أوتيت من قوة ، كأنها تتعلق بحبل نجاة في بحرٍ هائج.

لماذا لم تحضر طبيب العائلة ؟ لماذا تتركني للغرباء ؟

كان سؤالها أقرب إلى اتهامٍ يخرج من أعماق الرعب. ابتلع فتحي ريقه ، وأجاب بصوت متحشرج يخفي ارتباكه:

اتصلت به... سيأتي إلى المستشفى ليشرف على الولادة بنفسه. صدقيني.

لكن الكلمات، مهما كانت مطمئنة، لم تستطع أن تخفف وطأة الألم. كان جسد فتون يعلن تمرّده ، كأن كل خلية فيه تصرخ : آن أوان العبور.

*

في الممر الأبيض البارد للمستشفى ، بدا الزمن كأنه تمدد بلا نهاية. ارتفعت صرخات فتون ، ترتطم بالجدران ثم تعود إليها مضاعفة. رائحة المطهّرات ، أضواء النيون القاسية ، خطوات الممرضات المتسارعة ، كلها كانت تشكّل مسرحًا قاسيًا للولادة ، حيث يتجاور الخوف والأمل ، الحياة والموت ، في رقصةٍ لا ترحم.

جلس فتحي على مقعدٍ بلاستيكي قرب غرفة العمليات ، يحدّق في الفراغ. كانت الأفكار تتدافع في رأسه كجيشٍ من الأسئلة: ماذا لو حدث لها مكروه ؟ هل كان مستعدًا حقًا لأن يكون أبًا ؟ هل يستطيع أن يحمل على كتفيه مصير طفلين ؟

مرّت ساعة بدت دهورًا. كان يشعر أن عقارب الساعة تتآمر عليه، تتحرك ببطءٍ متعمّد لتعذيب انتظاره. ثم فجأة، شقّ صمت الممر

صوت بكاءٍ حاد، تلاه آخر أكثر رقة. فتح الباب، وخرج الطبيب مبتسمًا ، وعلى وجهه أثر تعبٍ ممزوج بنشوة الانتصار.

مبارك... رزقتَ بتوأم. ذكر وأنثى.

توقف الزمن للحظة. أحسّ فتحي أن قلبه انفتح كنافذة على شمسٍ مفاجئة. رأى الطفلين من خلف الزجاج ، صغيرين ، هشّين ، كعصفورين خرجا لتوّهما من شرنقة مظلمة. وُضعا في الحاضنة ، تحيط بهما أنابيب وأسلاك ، كأن العلم يحاول أن يعيد صياغة المعجزة بلغةٍ باردة.

أما فتون، فقد غابت في شبه غيبوبة ، جسدها منهك كأرضٍ جرفتها السيول. اقترب الطبيب من فتحي ، وقال بصوتٍ هادئ:

اضطررنا لتخديرها. الولادة كانت شاقة.

جلس فتحي بجوارها ، يتأمل ملامحها الشاحبة. بدت كلوحةٍ مقدسة أرهقها الزمن. همس في داخله:

وجهها... كم يشبه طفولتها البعيدة. بريء حتى في ألمه. هل تستحق هذه الحياة كل ما سلبته منها ؟

أمسك بكفها الباردة، وأغمض عينيه، كأنما يحاول أن يسكب فيها دفئه كله. غلبه النعاس للحظات ، قبل أن توقظه الممرضة بابتسامة مهنية:

هل ترغب في قهوة ؟

هز رأسه نافيًا ، ثم سأل بصوتٍ قلق:

متى ستستيقظ؟

بعد ساعات... لماذا لا تذهب لرؤية الطفلين ؟

قادته إلى الحاضنة. اقترب من الزجاج ، وشعر لأول مرة أن قلبه لم يعد ملكه. كان ينبض في صدريهما الصغيرين. ابتسم ابتسامة صامتة ، مبللة بالدهشة والخوف معًا.

*

في كافيتريا المستشفى، جلس وحيدًا أمام كوب نسكافيه وبسكويت باهت الطعم. كان يمضغ ببطء ، كأنما يختبر ثقل الوحدة في فمه.

هل سأكون أبًا صالحًا ؟ أم سأورثهما خوفي كما أورثني أبي صمته ؟

تذكّر طفولته: ذلك الأب الصارم ، الصامت ، الذي لم يعرف كيف يحتضن. خاف أن يكرر المأساة ، أن يورث أطفاله برد العاطفة كما تُورث الأسماء.

عاد إلى الغرفة ، فوجد فتون تتقلب بين وعيٍ وغيبوبة. اقترب منها ، وراح يقرأ وجهها كما لو كان كتابًا يعرفه عن ظهر قلب ، لكنه يكتشف فيه سطرًا جديدًا في كل مرة.

فتون... لم نكن نعرف أن الحب سيصير امتحانًا بهذا الحجم. أنتِ الآن بين الموت والحياة ، وأنا عالق بين الخوف والرجاء. أي قدر هذا الذي يجمعنا ؟

*

حين فتحت عينيها ، بدا له الأمر كمعجزة صغيرة. ابتسم ، وضغط على يدها:

الحمد لله على سلامتك.

همست بصوتٍ متعب:

الطفلان... أريد أن أراهما.

أشارت الممرضة ، فجاءت بالعربة الصغيرة. حين وضعت الطفلين بين يدي فتون ، انهمرت دموعها في صمت. ضمّت الولد أولًا ، ثم البنت ، كأنها تريد أن تمنحهما الأمان من فراغ العالم.

همست في داخلها:

ها أنتما خرجتما من ظلمتي إلى نوركما. هل ستغفران لي كل صرخة ألم ؟ هل ستجدان في حليب قلبي ما يكفي لتنسيا جوع الأرض ؟

راقبها فتحي بدهشة وامتنان. رأى امرأة أخرى تولد من رحم الألم. أدرك أن الأمومة ليست دورًا اجتماعيًا ، بل تحوّلًا كونيًا يعيد تشكيل الروح.

اقترب منها ، وقال برفق و حنان :

لقد صرتِ أمًا يا فتون... وأنا صرت أبًا . لكن الأجمل أننا وُلدنا من جديد معهما.

ابتسمت ، وأغمضت عينيها ، بينما الطفلان يتشبثان بها كما لو أنهما يخشيان أن يضيع هذا الحضن.

و استسلمت لنوم عميق .

*

في تلك الليلة ، حين غطّا في نومهما البريء، ظل فتحي ساهرًا. جلس بجوار سريرها ، يكتب في داخله حوارًا لا يسمعه أحد:

يا فتون، هل سنحميهما من وجع العالم ؟ أم سنسلمهما إليه كما سلّمونا ؟ هل يمكن للحب أن يكون جدارًا في وجه الزمن ؟

لم تجبه سوى أنفاسها المرهقة ، وصوت تنفس الطفلين العذب. لكنه شعر في أعماقه أن شيئًا مقدسًا وُلد ، ليس فقط بين ذراعيها ، بل في قلبه هو أيضًا.

*

كان القصر العتيق ، البعيد في الجيزة ، ينتظر عودتهم. لكن حين يعودون ، لن يعودوا كما ذهبوا. سيحملون معهم حياة جديدة ، وأسئلة جديدة ، وخوفًا أكبر ، وأملًا أعمق. كأن القدر أراد أن يعلّمهم أن الميلاد ليس بداية طفل ، بل بداية إنسان جديد في كل من يلمس تلك المعجزة.

وهكذا، في غرفةٍ بيضاء باردة ، كُتبت أول سطور حكاية لا يعرف أحد أين ستنتهي ، لكنها بدأت ، كما تبدأ كل الحكايات العظيمة ، بصرخةٍ صغيرة تشقّ جدار الصمت ، وتعلن للعالم : ها نحن هنا... لنجرّب الحياة من جديد.

حين يجف النبع في حضن الأم

قالت فتون هانم للطبيب بصوت خافت ، كأنها تعترف بسرٍّ تخجل من النطق به :

ثدياي يا دكتور لا يدرّان لبنًا لطفليّ... أحاول وأحاول ، لكن قطراتٍ ضئيلة لا تكفي حتى لإشباع بكاء ساعة.

كان الليل يرخي سدوله خلف نوافذ المستشفى، والمصابيح البيضاء تُلقي بوهجٍ بارد على وجهها الشاحب . الطبيب لم يبدُ عليه التعاطف بقدر ما بدا مكفهرًّا ، كأنه يحمل في عينيه سرًّا أثقل من أن يُقال دفعة واحدة.

في اليوم التالي عاد يحمل أوراق التحاليل بين يديه ، والجدية تعقد حاجبيه . جلس أمام فتون وفتحي ، وقال بصوت جافٍ ولكنه مشوب بالأسى :

هناك ورم خبيث في الثدي... سأنتظر باقي التحاليل لأحدد النوع بدقة مع زملائي. لكن عليكِ أن تعلمي ، يا مدام فتون ، أنك لن تغادري المستشفى في الوقت القريب.

تساقطت الكلمات كحجارة على مسامعها . لم تصرخ. لم تبكِ. لكنها شعرت أن الأرض تنزلق من تحتها ، وأن الجدران تدور حولها كدوامة . في داخلها دوّى صوتٌ آخر :

هل أنا أمٌّ بلا لبن... أم جسدٌ يعلن عصيانه عليّ؟ هل المرض يسرق أمومتي كما يسرق حياتي ؟

X

انتحى الطبيب بفتحي جانبًا ، وبصوت خفيض قال له:

لا وقت للانتظار... أبحث عن مرضعة للطفلين، فاللبن هو الحياة ، وأنت لا تريد أن تفقدهما.

شعر فتحي أن الهواء قد انقطع عن رئتيه . نظر إلى زوجته من بعيد وهي مستلقية ، غارقة في صمتٍ يشبه الغياب ، وتساءل

كيف تحوّلتُ من رجلٍ يحتفل بميلاد توأمه إلى رجل يفتش عن صدرٍ غريب يطعم أبناءه ؟ أي قسوة هذه ؟

عاد إلى بيته مثقلاً بالقلق ، وفكر للحظة أن يحضر زوجته الأولى – تلك التي طلقها بعد جراحٍ قديمة – لترضّع الصغار. لكنه ارتجف من الفكرة

:أيعقل أن تسقيهم لبنًا مسمومًا بالحقد؟ ألا تفعل بهم ما فعلت بي من قبل؟ تراجع ، ودفن الفكرة كما يُدفن موت قديم.

ثم قصد ابنة عمه ، وطلب منها أن تعتني بالرضيعين ، فهزّت رأسها بأسف:

سأغادر إلى أمريكا بعد أيام... لا أستطيع أن أرتبط بما لا أقدر على استكماله.

شعر بخيبة إضافية ، كأن الأبواب كلها توصد في وجهه.

X

في صباح اليوم الثالث، نشر فتحي إعلانًا في الصحف ، بل ووزع الخبر عبر رجاله في المقاهي والشوارع :

مطلوب مرضعة لطفلين حديثي الولادة... بيت كريم... راتب مجزٍ.

لم يمر وقت طويل حتى اصطفت أمام بوابة القصر عشرات النساء ، كل واحدة منهن تحمل طفلها بين ذراعيها ، والعيون ممتلئة بآمالٍ ورجاء . نساء في ملابس بسيطة ، ووجوه حفرتها الحياة بمآسيها . كل واحدة تحمل قصتها الخاصة : أرملة ، أو زوجة غائب ، أو أمًّا فقيرة تبحث عن لقمة.

في القصر ، جلس الطبيب ومديرة القصر إلى جوار فتحي. بدأوا يستقبلون النساء ، يسألونهن عن صحتهن ، عن أطفالهن ، عن حليب صدورهن . كانت أصوات البكاء تتعالى من الأطفال المحمولين ، مختلطةً برائحة الحليب الممزوجة بعرق الخوف.

X

من بعيد، كانت فتون تتابع المشهد عبر النافذة . قلبها يتمزق، وعقلها يتشظى :

أيعقل أن يتربى ولداي على لبن غير لبني ؟ أي ذنبٍ ارتكبتُ كي أحرم من أول طقوس الأمومة ؟ أأنا أمٌّ ناقصة ؟

تنهّد صوتها الداخلي

:ها هو جسدي يتمرد عليّ ، يكشف هشاشته أمام الجميع. لقد كنتُ أظن الأمومة قدري ، فإذا بها تصير امتحاني الأخير.

وفي عمق وعيها ، تداخلت الذكريات : ضحكة طفولتها حين كانت تلعب بدمية من قماش ، حلمها ليلة زفافها أن ترضع طفلًا من صدرها كما كانت ترضعها أمها . كل شيء تبدد الآن.

X

بعد ساعات من الانتظار ، وقع الاختيار على امرأتين . الأولى شابة في منتصف العشرينات ، فقدت زوجها في حادث مفاجئ ، فبقي لها طفلها فقط سندًا في الحياة . والثانية امرأة أكبر سنًا ، ترمّلت منذ عام تقريبا ، تعيش وحدها مع رضيعها. كلتاهما موفورتا الصحة، وصدورهما ممتلئة بالحليب.

قال الطبيب وهو يكتب الملاحظات:

هاتان مناسباتان ، اللبن عندهن كافٍ ، وسليم.

أمر فتحي مديرة القصر أن تُعدّ غرفة خاصة للمرأتين ، وأن تهتم بهما كما تُهتم بالضيفات الكريمات : طعام وملبس ، وراحة كاملة . أراد أن يعوضهن عمّا فقدن ، وفي الوقت نفسه يحفظ لطفليه حقهما في الحياة.

X

لكن الليل، حين خيّم على القصر ، لم يمنح فتحي النوم . جلس وحده في مكتبه ، يحدّق في الفراغ ، يسمع أنفاس التوأم في غرفتهما المجاورة . دخل في حوار داخلي لا ينقطع:

هل يرضعان الآن ؟ هل يشعران بالغربة في صدور غريبة ؟ هل سيتذكران يومًا أن أمهما لم تطعمهما من جسدها ؟ أأكون أنا الجاني حين اخترت لهما امتان بديلتين؟ أم أني المنقذ الذي يحمي حياتهما ؟

في لحظة ما، سمع بكاءً خافتًا يتسرب من الغرفة ، فقام مسرعًا . وجد إحدى المرضعتين تهدهد طفله ، فيما كان الآخر نائمًا على صدر المرأة الثانية . مشهدٌ يمزّق قلبه بين الطمأنينة والحسرة : الطمأنينة لأنهما وجدا حليبًا يسكتهما ، والحسرة لأن الأم الحقيقية غائبة ، وحاضرة فقط بمرضها.

X

في المستشفى، كانت فتون تسبح في دوامة أفكار . تحادث نفسها كأنها شخصان متنازعان:

لستِ أمًّا كاملة. بل أنا أمٌّ ، ولو حرمتني الطبيعة لبنها. لكن طفليكِ يرضعان من صدرٍ آخر، سيشبّان على رائحة غير رائحتك . الأمومة ليست لبنًا فقط ، الأمومة قلبٌ ودموعٌ وسه ر. سيعرفان أنني كنت أقاوم الموت لأجلهما.

أغمضت عينيها ، وتخيلت المشهد : طفلان صغيران يزحفان نحوها ، يلمسان يديها ، ويبتسمان . دمعت عيناها وهي تهمس:

سأكون معكما... حتى ولو غبتُ ، سأكون معكما في كل نفس.

X

هكذا التقت الأقدار عند مفترقٍ قاسٍ : أمٌّ على سرير المرض تقاوم ورمًا خبيثًا ، أبٌ يلهث بين القصر والمستشفى بحثًا عن حياةٍ لأولاده ، وامرأتان فقدتا رجليهما لكنهما وجدتا في لبنهما حياةً جديدة لطفلين غريبين.

البيت امتلأ بأصوات الرضاعة ، والأنين ، والسكينة الممزوجة بمرارة . وكأن القدر كتب على الجميع أن يختبروا معنى الأمومة والأبوة في صورٍ متكسّرة، لكن حقيقية.

وفي قلب الليل، ظل صوت فتون يتردّد في أعماقها كدعاء :

يا رب ، لا تحرمني من ضمةٍ واحدة لهما ، ولو كنتُ بلا لبن ، بلا قوة ، بلا جسد... يكفيني أن أكون قلبهما.

حياة جديدة

حين تتعلّم الأرواح أن تمشي من جديد

لم يكن دخولهما القصر مجرّد انتقالٍ من مكانٍ إلى آخر ، بل كان عبورًا خفيًّا من حياةٍ إلى حياة ، كأن الزمن قد رقّ قلبه أخيرًا ، فمدّ لهما يده ليُخرجهما من دهاليز العتمة إلى فسحةٍ من نورٍ طال انتظاره. شعرت المرأتان أن حياتهما قد انقلبت رأسًا على عقب ، لا بضربةٍ قاسية ، بل بلمسةٍ رقيقة ، كمن يوقظ نائمًا برفقٍ شديد حتى لا يفزعه الحلم.

كانت " أزهار " تمشي ببطء ، تخشى أن توقظ هذا الحلم إن أسرعت ، تتلفت حولها كطفلةٍ ضلّت طريقها إلى مدينةٍ من السكر والضوء. المرايا اللامعة تعكس صورتها بوضوحٍ لم تعهده ، وكأنها ترى نفسها لأول مرة: وجهٌ متعبٌ لكنه مندهش ، عينان اتسعتا دهشةً وامتنانًا ، وشفتان ترتجفان كأنهما تخافان من الابتسام خشية أن يذوب المشهد فجأة. أما " أنوار " ، فكانت أكثر صمتًا، لكنها كانت أشد انفعالًا؛ كانت روحها تهتز في الداخل كما تهتز شجرةٌ هزّها النسيم بعد طول جفاف.

في كل زاوية من زوايا القصر ، كان ثمة شيءٌ يقول لهما : لقد وصلتما .الأرضيات الرخامية الباردة تحت الأقدام بدت كأنها تمتص تعب

السنوات الماضية ، والجدران المزخرفة همست بحكاياتٍ لا تُروى إلا لمن عرف القسوة . الستائر الحريرية تنساب على النوافذ في دلالٍ صامت ، وتترك لضوء الصباح أن يتسلل بخجلٍ إلى الغرف ، فينثر فيها ذهبًا خفيفًا يُبهج القلب. كان الضوء نفسه مختلفًا هنا ؛ أقل حدّة ، أكثر رأفة ، كأنه يعرف أن الأرواح المتعبة لا تحتمل الفجاءة.

دخلتا الغرفة المخصصة لهما وللأطفال ، فاحت العطور في استقبالهما كأذرعٍ مفتوحة. عبير الزهور الشرقية امتزج برائحة الصابون الفاخر ، فارتعشت " أنوار " قليلًا ، وكأن شيئًا قد انكسر في داخلها ثم التأم فجأة . في تلك اللحظة ، تذكرت حمّامات البيوت الضيقة التي عاشت فيها ، حيث البخار ممزوج برائحة الرطوبة ، حيث الدلاء المعدنية تصطدم بالجدران ، وحيث البرد يتسلل إلى العظام حتى في أشد أيام الصيف . شعرت أن هذه الرائحة الجديدة لا تخص المكان وحده ، بل تخص مصيرًا آخر يُعاد تشكيله.

الملابس الجديدة المعلقة في الخزانة بدت كأنها وجوهٌ مبتسمة ، تدعو إلى بدايةٍ نظيفة. مدّت " أزهار " يدها تلمس قماش أحد الفساتين ، فانتابها إحساس غريب : إحساس بأن هذا القماش الناعم لا يليق بيدٍ اعتادت الخشونة والعمل الشاق. لكنها سرعان ما ابتسمت لنفسها ، وهمست في سرّها : ولِمَ لا ؟ ألسنا نستحق ؟

اتفقت المرأتان منذ اللحظة الأولى على أن تكون حياتهما هنا مبنية على نظامٍ يشبه طمأنينة الأمّهات الحريصات . كان الاتفاق غير مكتوب ، لكنه وُلد من عمق الحاجة إلى الأمان . إن نامت إحداهما ، بقيت الأخرى يقِظى ، تحرس الأطفال بعيونٍ ساهرة وقلبٍ يفيض بالحنان . وإن دخلت واحدة الحمّام ، وقفت الثانية قرب الأسرّة الصغيرة ، تراقب تنفّس الصغار ، تعدّ أنفاسهم كمن يعدّ نبض الحياة ذاته.

كانت " أزهار " حين تسهر ، تجلس قرب سرير الطفل ، تحدّق في وجهه الصغير ، وتستعيد في داخلها شريط حياتها القديم : ليالٍ طويلة قضتها في البكاء ، أصوات غضبٍ مكتوم ، أقدامٌ ثقيلة تقتحم سكون الليل ، وقلوبٌ صغيرة ترتجف خوفًا. كانت تسأل نفسها في صمت : هل حقًّا انتهى كل ذلك ؟ أم أن هذه الراحة مجرّد استراحة قصيرة قبل عاصفةٍ أخرى ؟ لكن سرعان ما يهدأ قلقها حين تسمع تنفّس الصغير المنتظم ، كأنه يقول لها : اطمئني، فهذه اللحظة حقيقية.

أما " أنوار " ، فكانت حين تسهر ، تُرتّل أدعية خفيّة ، كلماتٍ علّمتها إياها جدّتها يوم كانت طفلة. لم تكن متديّنة بالمعنى التقليدي ، لكنها كانت تؤمن بأن الدعاء حبلٌ سريّ يصل الأرض بالسماء. كانت تشعر أن روحها ، وهي تهمس بتلك الكلمات ، تتخفف من أثقالٍ ظلت سنوات طويلة مربوطة بأجنحتها.

مديرة القصر كانت حضورًا صامتًا ، لكنه نافذ . امرأة في منتصف العمر ، ملامحها حادّة ، وعيناها تشبهان عيني صقرٍ لا يغفل . كانت تمرّ على الغرف ، تتفقّد التفاصيل الصغيرة : درجة حرارة الحليب ، نظافة الأغطية ، هدوء المكان. تبتسم أحيانًا ابتسامة قصيرة ، ثم تختفي كأنها ظلّ. لم تعرف المرأتان هل تلك الابتسامة علامة رضا أم مجرّد عادة قديمة ، لكنهما شعرتا ، رغم غموضها ، بشيءٍ من الأمان في وجودها. كانت كأنها حارسٌ غير مرئيّ ، يقف بينهما وبين عالمٍ لا يرحم.

حين سمحت لهما بالخروج إلى حديقة القصر بصحبة الأطفال ، شعرت " أزهار " بأن قلبها يتسع فجأة ليشمل العالم . العربتان المزدوجتان تلمعان تحت شمس الصباح ، الأشجار تمتدّ أغصانها كأنها مظلات طبيعية ، والعصافير تملأ السماء بزقزقاتٍ تشبه الضحك. الريح داعبت خصلات شعرهما بلطفٍ ، وهمست لهما بشيءٍ يشبه الوعد : لقد بدأتما من جديد . في تلك اللحظات ، كان الزمن يتباطأ ، أو ربما كان القلب هو الذي يتسع ليحتضنه.

حتى الطعام كان له طقسٌ خاص . تأكل إحداهما أولًا في المطبخ الهادئ ، بينما تُطعم الأخرى طفلها ، ثم تتبادلان الأدوار. لم يكن هذا التنظيم مجرد ترتيب عملي ، بل كان طقسًا نفسيًّا يُشعرهما بالسيطرة على يومهما ، على حياتهما ، بعد سنواتٍ من الفوضى والإجبار. الأطباق المزيّنة بعناية ، الفاكهة الطازجة ، الخبز الدافئ، كلها تفاصيل صغيرة ، لكنها كانت تشكّل جسورًا خفيّة تعيد ربط روحيهما بالحياة.

كانت " أزهار " ، وهي تتناول طعامها ، تستعيد في ذهنها صورة المائدة القديمة في بيتها : طاولة خشبية متشققة ، أطباق قليلة ، عيون تراقب كل لقمة ، وأصوات توبّخ إن تأخرت يدها في الصحن. هنا ، كان الأكل فعل امتنان ، لا فعل خوف . كانت كل لقمة تقول لها : أنتِ آمنة.

وذات مساء، حين كان الغروب ينساب على الحديقة كحبرٍ ذهبيّ ، جلست " أزهار " قرب النافذة ، تحدّق في الأفق . كان الضوء المائل

يرسم ظلال الأشجار على الأرض كلوحاتٍ صامتة ، وكانت " أنوار " تهدهد طفلها الصغير ، تغني له أغنية قديمة كانت أمّها ترددها لها في طفولتها. ساد بينهما صمتٌ طويل ، لكنه لم يكن صمتًا فارغًا ، بل كان ممتلئًا بالمعاني.

قالت " أزهار " أخيرًا بصوتٍ دافئ مشوبٍ بالتفكّر :

لقد ابتسمت لنا الحياة أخيرًا يا " أنوار "... نحن نعيش الآن كما لم نعش من قبل. لا صراخ ، لا أوامر ، لا نظرات ازدراء. في كنف هذا القصر ، نحيا كأننا في حلمٍ ناعم ، نرعى الأطفال ونرعى أنفسنا.

ابتسمت " أنوار " بخفة ، وعيناها تلمعان بنورٍ داخلي جديد :

ربما، يا " أزهار " ، ليست الحياة التي تغيّرت ، بل نحن. ربما حين نُنتزع من قسوة ما ألفناه ، نكتشف أن في داخلنا طاقة للحياة كانت تنتظر الضوء فقط.

سكنت كلماتها في صدر أزهار كقطرة مطرٍ وقعت على أرضٍ عطشى. أغمضت عينيها لحظة ، فرأت وجوهًا غاضبة ، ومساءاتٍ طويلة من الخوف ، وأطفالًا يبكون خلف الأبواب المغلقة. تذكّرت نفسها وهي تتقوقع حول روحها ، تحمي ما تبقى منها من الانكسار. لكنها الآن ، في هذا المكان ، تشعر بشيءٍ يشبه الخلاص . رائحة الغرفة النظيفة ، صوت الطفل النائم كأنه موسيقى حالمة ، وانعكاس وجهها في المرآة الصافية... كلها أشياء تُعلن بداية حياة جديدة.

قالت بعد تردد :

أخاف أحيانًا أن أصدق كل هذا. أخاف أن أستيقظ ذات صباح فأجده مجرد حلم.

اقتربت " أنوار " منها ، وضعت يدها على كتفها برفق :

الخوف طبيعي ، يا " أزهار" . نحن خرجنا من جحيمٍ طويل ، ومن يخرج من الجحيم يظلّ زمنًا يشكّ في الجنة. لكن انظري حولك ، المسِي الأشياء ، اسمعي الأصوات ، شمي الروائح. هذا ليس حلمًا ، هذا واقع... واقع علينا أن نحسن العيش فيه.

في تلك الليلة ، جلستا قرب بعضهما ، تتحدثان عن المستقبل. لم تكن أحلامهما عظيمة ، بل كانت صغيرة ، بسيطة ، لكنها ثمينة كالجواهر. أن تتعلما القراءة مجددًا ، أن تسافرا يومًا إلى البحر ، أن

تجلسا على الشاطئ وتتركا الأمواج تغسل أقدامهما المتعبة ، أن يكبرا مع أطفالهما في هدوء ، أن يكملا ما انقطع من حياتهما دون خوف.

قالت " أزهار " وهي تبتسم بحياء :

أريد أن أتعلم كيف أكتب اسمي دون أن أرتجف.

ضحكت " أنوار " برقة :

و أنا أريد أن أقرأ كتابًا كاملًا دون أن أشعر أنني أسرق وقتًا ليس لي.

كان القمر يطلّ من بين السحب ، كأنه يستمع لحديثهما في صمتٍ مشفق ، يرسم نوره على وجهيهما فيُضيئهما بحنانٍ يشبه وعدًا خفيًا. في ذلك الضوء ، بدا كل شيء ممكنًا ، وكل جرحٍ قابلاً للشفاء.

ومع مرور الأيام، بدأت كل واحدة منهما تكتشف في داخلها طبقاتٍ جديدة من ذاتها. " أزهار "، التي اعتادت الصمت والانكماش ، بدأت تتحدث أكثر بجرية ، تضحك أحيانًا بصوتٍ عالٍ ثم تتوقف فجأة كمن يفاجأ بنفسه. كانت تتعلم كيف تثق ، كيف تترك قلبها مكشوفًا دون أن تخاف الطعن.

أما " أنوار " ، فكانت تكتشف شجاعة لم تكن تعرف أنها تمتلكها. كانت تقف أمام المرآة ، تنظر إلى وجهها طويلًا ، وتقول في سرّها : أنا هنا ، وما زلت قادرة على الحياة.

كان القصر ، بكل هدوئه وأناسه ، يشبه رحمًا جديدًا يولد فيه الألم من جديد على هيئة أمل. لم يكن مكانًا فاخرًا فحسب ، بل كان مساحة نفسية تعيد ترتيب الفوضى الداخلية. كل ركنٍ فيه كان يعلّمهما درسًا: النظام يعني الأمان ، النظافة تعني الكرامة ، الصمت أحيانًا يعني الاحترام ، والاهتمام بالتفاصيل يعني أن الإنسان ليس مجرّد رقم في حياة الآخرين.

وهكذا ، في قلب ذلك القصر العامر، وسط الهدوء والعطور والضوء المنسكب بظلاله ، بدأت المرأتان تدركان أن الحياة ليست ما يُمنح ، بل ما يُعاد بناؤه من رماد التجارب. كانت حياتهما الجديدة لا تشبه الأحلام القديمة ، بل كانت أكثر صدقًا منها ؛ لأنها وُلدت من جرح الزمن ، ونمت على بصيرة ، وتفتحت في داخلهما كزهرتين نجتا من العاصفة ،

فتعلمتا أخيرًا كيف تمشي الأرواح على أرضٍ آمنة دون أن تنظر خلفها كل لحظة.

زيارة إلى القصر الهادئ

كانت **خطواتهما ترتجف فوق البلاط البارد** للمطار لا يعرف عنهما سوى أنه نقطة انتقال بين خوف قديم وأملٍ يتنفس من بعيد. وقفت **جيلان** إلى جوار **ديلبارا** أمام مكتب الجوازات ، بينما راح الهواء المشبع برائحة المطاط والمعقمات يتسلل إلى قلبيهما كأنّه يثير خفقاتٍ حائرة.

قدّمت جيلان جوازي السفر إلى الضابط. فتحهما ببطء، **تفحّص الوجوه الساكنة في الصور**، ثم رفع عينيه إلى جيلان وهو يسأل بصوته الهادئ :

سياحة؟

ابتلعت جيلان ريقها سريعاً ، ثم ردّت بثقةٍ مزيّفة :

زيارة... لأختنا.

ارتسمت على وجه الضابط علامة شكّ. انحنى قليلًا نحوها:

وعنوان أختكما؟

أحسّت جيلان أن السؤال يكشف هشاشتها... تلك التفاصيل الصغيرة التي لم تتعلم كيف ترتّبها أمام سلطة لا تعرفها . سكتت ، ثم رفعت رأسها بقوة كمن يشهر سيفًا في آخر معركة :

زوج أختي... واقف في صالة الانتظار.

رفع الضابط حاجبيه متفاجئًا:

وما اسمه؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة تحمل قلقًا مغلفًا بالثقة :

فتحي البهلي.

دارت في رأس الضابط أسماءٌ سمع عنها في جلسات كبار المسؤولين ...رجل الأعمال... صاحب النفوذ...

وفي تلك اللحظة انطلق صوت الميكروفون مجلجلاً:

الأستاذ فتحي البهلي ، يُرجى التوجّه فوراً إلى مكتب الاستعلامات.

كان **فتحي** يجلس في الصالة كمن يحرس ذاكرة لا يريد لأحدٍ أن يقترب منها . نهض سريعًا بعد النداء ، وتوجّه نحو المكتب . لم يكد يدخل حتى أمسك به العسكر باحترامٍ مبالغ ، واقتادوه إلى الداخل.

لحظة رأته **ديلبارا** ، اندفعت نحوه كطفلة عادت من تيه العمر، احتضنته بشدة ، **كأنّها تعانق خلاصها الوحيد** ...فتعالى همس الدهشة من الموظفين .

تدخّل مدير المكتب لواء ذو وجهٍ جامد كلوحة باهتة:

فتحي بك، نعتذر... السيدتان لا تعرفان العنوان الذي ستقيمان فيه.

ابتسم فتحي نصف ابتسامة وقال:

أنا المخطئ... لم أعطهما العنوان قبل قدومهما.

قدّم عنوان القصر. تبع الاعتذار اعتذارٌ آخر ، وانتهى الموقف بلا ضجيجٍ إضافي...

أخذ فتحي الأختين، واتجه بهما نحو السيارة السوداء الفارهة التي كانت تنتظره في الخارج. جلس خلف المقود بصمت ، وانطلقت السيارة كجوادٍ يعرف طريقه نحو قصرٍ لا يراه إلا من يستحق الضياع فيه.

كانت **الطريق تتسابق مع الريح** ، والأضواء تتراقص على زجاج النوافذ ، فيما كانت **كل واحدة منهما تبحث عن معنى جديد للحياة في المناظر التي تتراجع خلفهما**.

*

وأخيراً... نحن هنا.

قالتها لنفسها، كأنها ترمم شقوق قلبها بكلماتٍ تتنفسها أسرار الماضي. كانت تشعر بأن هذه البلاد ليست مجرد مكان، بل بداية فصلٍ جديد من حياتها الممزقة.

ترى... ماذا ينتظرنا خلف أبواب ذلك القصر؟

هل سنجد الأمان... أم مزيدًا من الأسئلة؟

*

كانت ديلبارا تحدّق عبر الزجاج ، بحثًا عن ملامح أختها **فتون** التي غابت سنوات عمرها .

أحقاً فتون تعيش هنا ؟

كيف تغيّر وجهها ؟ وهل لا تزال تذكر ضحكتن ا؟

كانت تشعر بثقل الشوق ، ومرارة لحظة الفراق التي تركت في قلبها حفرة لا تُردم.

*

توقفت السيارة أخيراً أمام **بوابة ضخمة من الحديد** المنقوش ، ترتفع كأنها حاجز بين زمنين. فتح الحارس الباب بانحناءة احترام :

أهلاً فتحي بك .

مالت جيلان على أذن أختها هامسة:

لماذا يعاملونه كالأمراء ؟

لكن ديلبارا لم تجب ، فقد ابتلعها المشهد... حدائقٌ واسعة تتلألأ تحت القمر ، ونوافيرُ تتراقص كعذراءٍ تكتشف الماء أول مرة.

دخلوا القصر... وبدأت الحكاية.

كان القصر **مهيبًا** ، أروقته الطويلة كأنها قصائد صامتة محفورة في الحجر.

قادتهم خادمة أنيقة إلى غرفة فسيحة تطل على الحديقة الخلفية.

قالت بأدبٍ مفرط :

سيدة البيت ستكون بينكم بعد قليل.

ما إن غادرت حتى سادت لحظة انتظارٍ متوتر... نظر كل منهما إلى الأخرى كأنهما تستعيدان ملامح فتون التي حملتها الأيام بعيداً عنهما.

ثم ...**دوت خطواتٌ هادئة** قادمة من الممر الطويل.

ظهر **فتحي** أولاً ، ثم تنحّى جانبًا... لتبرز فتون .

لم تكن كما تركتاها... كانت **امرأة أخرى** : مزيج بين قوة مكتسبة ونعومة فقدت شيئًا من براءتها.

اندفعت الأختان نحوها، تعانقن... تعالت نبضات القلوب ، وامتلأت عيونهنّ بدموعٍ تشبه الاعتراف.

قالت فتون وهي تكفكف دموعها :

اشتقتكما حتى بدا الشوق جزءًا من دمي.

لكن في زاويةٍ بعيدة من نظراتها... كان هناك **حزن** لا يخفيه الثراء.

*

حوار على طاولة العشاء

جلسوا جميعًا على مائدة فخمة تلمع كالمرمر ، مائدة تقف على دلافين .

لكن الحديث لم يكن فخماً... كان هشًا، مترددًا ، يحاول أن يرمم ما تهدّم من جسور.

قالت جيلان بجدية :

أخبرينا يا فتون ... كيف هي حياتك هنا ؟

نظرت فتون إلى كوب الماء وكأنها ترى بداخله ماضيها:

الحياة ليست ما نراه... بل ما نفتقده.

تقاطعت نظرات الأخوات الثلاث ...**أسئلة كثيرة دون إجابات**.

تدخل فتحي وهو يبتسم بثقة متعمدة:

فتون ملكة في هذا القصر... ولن ينقصها شيء.

لكن تلك الكلمات وقعت كالحجارة في أعماق جيلان.

ما معنى أن تكون ملكة...؟

وما ثمن هذا التاج؟

قرأت هذا السؤال في عين أختها، فضغطت فتون يدها تحت الطاولة وهمست:

كل شيء بثمن يا جيلان... حتى الأمان.

*

في منتصف الليل، خرجت ديلبارا إلى الشرفة. كانت تبحث عن نجمة تطمئن قلبها ، فوجدت نفسها تستمع إلى صوتٍ خافت... كان بكاء.

تتبعت الصوت حتى وصلت إلى غرفة فتون .

كانت فتون جالسة على الأرض ، **تضم صورتين**:

صورة لفتحي، وأخرى لرجل.

تفاجأت ديلبارا ,و قالت في دهشة استغراب :

أبانا ؟ لماذا لم تخبرينا ؟

أغمضت فتون عينيها:

لأنه ليس هنا... رحل.

جمدت الكلمات في حلق ديلبارا.

استرسلت فتون في صوت حزين :

غادر هذا العالم قبل أن يتعلم معنى الحنان... ومنذ ذلك اليوم وأنا أسكن هنا... لكن روحي ما تزال عنده.

و استرسلت فتون بصوت مبحوح:

الثروة قيد جميل... لكنه قيد.

القصر كبير... لكنه فارغ بأكثر مما تظنين.

قالت ديلبارا والدموع ترتجف في صوتها:

لماذا لم تعودي إلينا؟ كنا سنحملك عن كل ألم...

فتون مبتسمة بحزن:

أحيانًا الهروب هو شجاعة... وأحيانًا هو هلاك.

وقفت جيلان خلفهما تستمع...

كانت تلك الليلة **مفترق طرقٍ للجميع**.

*

فجر جديد

حين بزغ الفجر ، وجدت جيلان رسالة صغيرة بجانب سريرها:

لا تتركي قلبك هنا ، خذيه معك أينما ذهبتِ.

فتون

تذكرت جيلان سؤال الضابط في المطار:

عنوان أختكما ؟

اليوم فقط أدركت الإجابة:

عنوانها... قلبها الذي لا يزال يحاول النجاة.

وقفت ديلبارا بجوار النافذة تهمس:

هذه الزيارة لم تكن إلى القصر... كانت إلى الجرح.

استعدوا للعودة. كان فتحي يقف عند المدخل بوقارٍ لا تشوبه مشاعر.

قالت فتون وهي تعانق أختيها:

عودتي معكما ليست اليوم... ولكنني سأعود يوماً ما. انتظراني... في وطن لا تُباع فيه الأرواح بثمن.

رحلت السيارة تاركة وراءها قصرًا جميلًا ...**لكنّه يسكنه الغياب.**

حين تبتسم الأيام

سيرة أيام تعلّم فيها القلب أن يبتسم

كانت الشمس ، في ذلك الصباح النديّ ، تشق طريقها بين ستائر الغيم كمن يفتح نافذة في قلب العتمة. الضوء لم يكن ساطعًا فحسب ، بل كان حنونًا ، يلامس الأرصفة والبيوت ، ويتسلل إلى الأرواح قبل العيون. في تلك اللحظة ، شعر فتحي أن شيئًا داخله قد استيقظ فجأة ، رغبةٌ قديمة في أن يوقف عجلة الزمن قليلًا ، أن ينتشل أسرته من دوّامة الأيام المتشابهة ، ويمنحهم فسحةً من فرحٍ نقي ، بلا حسابات ولا واجبات.

وقف أمام النافذة ، يتأمل المدينة التي لم تنم تمامًا بعد ، وقال في نفسه :

كم نركض ، وكم ننسى أن نلتفت إلى أقدامنا المتعبة ، وإلى قلوبنا التي تتآكل بصمت... متى آخر مرة ضحكنا من أعماقنا ؟

التفت إلى فتون ، التي كانت تهمّ بترتيب أشياء الصباح ، ملامحها هادئة لكنها مثقلة بشيءٍ غامض ، يشبه التعب المتراكم أكثر

مما يشبه الحزن. ابتسم وقال بنبرة خفيفة ، كمن يرمي حجرًا صغيرًا في ماءٍ راكد :

اليوم يا فتون ، نترك كل شيء خلفنا. لا عمل ، لا حسابات ، لا هموم. نخرج مع البنات والعاملين في المنزل... نضحك ، ننسى ، و نعيش.

توقفت فتون لحظة . نظرت إليه بدهشةٍ شفيفة ، كأنها لم تصدق ما سمعت . ثم لمعت عيناها ببريقٍ غائب منذ زمن بعيد ، بريق تلك الفتاة التي كانت يومًا ما تركض في الحقول وتؤمن أن العالم واسع بما يكفي لأحلامها.

حقًا؟... اليوم كله لنا ؟

لنا ، وللضحك ، وللهواء ، وللذكريات القادمة.

اقتربت منه ببطء و طبعت قبلة على خده ، وربما بشيءٍ من الامتنان الصامت ، و قالت :

كأنك تفتح نافذة في صدري ، يا فتحي.

في داخله ، شعر بأن هذا وحده كافٍ ليبرر كل التعب.

X

تحرّك الركب في سيارتين فان ، وكان الطريق إلى الأهرامات أقرب إلى مسرحٍ صغير للحياة . ضحكات تتطاير كالعصافير ، موسيقى خفيفة تنساب من جهاز التسجيل ، وأحاديث متقاطعة تشبه خيوط الضوء في زجاجٍ ملوّن.

جلست ديلبارا قرب النافذة ، تنظر إلى الطريق بدهشة من يرى العالم لأول مرة. كانت ملامحها تحمل مزيجًا من البراءة والحنين ، كأن روحها تعيش بين بلدين ، بين لغتين ، بين ذاكرتين. أما جيلان ، فكانت أكثر هدوءًا ، تراقب المشهد بعينٍ ناقدة ، كأنها تخزّن كل تفصيل لتعود إليه لاحقًا في وحدتها.

قاد فتحي السيارة بخفة ، يشعر أن المقود أخف من المعتاد ، وأن الطريق أكثر اتساعًا. قال في نفسه :

ربما السعادة ليست في الوصول ، بل في هذا الامتداد الهادئ بين نقطة ونقطة.

وحين لاح طيف الأهرامات من بعيد ، عمّ الصمت لحظة ، كأن الجميع اتفق دون اتفاق على أن هذا المشهد يستحق الوقار.

وقفت ديلبارا أمام الأهرامات مشدوهة. كانت الصخور الهائلة تبدو كأنها خرجت لتوّها من رحم الزمن . اقتربت من فتحي وقالت بلكنتها الأجنبية المحببة :

كيف بنى المصريون هذا يا فتحي ؟ هل كانوا بشرًا مثلنا ؟

تأمل الأفق ، حيث يلتقي الرمل بالسماء ، و قال :

ربما كانوا بشرًا... لكن بإرادةٍ تشبه إرادة الآلهة . كانوا يعرفون أن الإنسان لا يخلّد نفسه إلا إذا آمن أن للحياة معنى أكبر من الخوف.

ضحكت فتون بخفة ، و أضافت :

أتعلم؟ هذه أول مرة أزور فيها الأهرامات . كل ما عرفته عنها كان من كتب المدرسة.

وأنا كذلك، يبدو أننا مصريان بالهوية فقط!

قالها فتحي وهو يمد يده إليها.

ساروا بين الحجارة العتيقة ، وكل خطوة كانت أشبه بعبورٍ خفي بين زمنين. كانت فتون تشعر برهبةٍ لذيذة ، كأن المكان يهمس لها بأسرار لم تُكتب . أما فتحي ، فكان يغوص في داخله أكثر مما يغوص في التاريخ :

كم من أحلام شُيّدت ثم تهدّمت ؟ وكم من قلوبٍ حاولت أن تبني أهراماتها الخاصة لكنها لم تجد من يحمل الحجر معها ؟

حين مالت الشمس إلى الغروب ، افترشوا الصخور العريضة ، وأخرجوا السندويشات والعصائر . كان المشهد بسيطًا حدّ التواضع ، لكن في عيونهم بدا كأنه وليمة من الفرح . ديلبارا تلتقط الصور

بحماسة ، وجيلان تبتسم بخجل ، وفتون تمسح العرق عن جبينها وتقول:

كم نحن بحاجة إلى مثل هذا اليوم... كأننا نغسل أرواحنا من غبار الأيام.

لم يردّ فتحي ، لكنه شعر أن قلبه يبتسم.

X

في اليوم التالي ، كانت الوجهة القناطر الخيرية. انطلقت القافلة باكرًا ، والسماء صافية كأنها وعدٌ بالسعادة. الهواء يحمل نكهة الندى ، والطريق يمرّ بين خضرةٍ ممتدة تشبه بساطًا أخضر من أمل. بين الطريق هذا الخط الأسود .

هناك ، بين الحدائق الشاسعة وأصوات المياه ، صار الجميع كالأطفال. تسابقوا ، ضحكوا ، تسلقوا الأشجار ، وتعالت الصيحات الممزوجة بالمرح. إحدى العاملات ، وقد غمرها الضحك حتى احمرّ وجهها ، قالت بخجل :

صدقوني ، هذه أول مرة أزور القناطر ! كنت أظنها مكانًا للأغنياء فقط.

ضحك فتحي بحرارة :

اليوم كلنا أغنياء... بالفرح.

جلسوا بعد اللعب على الأغطية المفروشة فوق العشب ، وتشاركوا الطعام كما لو أنهم عائلة واحدة. الحوار كان بسيطًا ، لكنه دافئ كموقد في ليلة شتاء . تحدثت فتون عن طفولتها ، عن بيت الطين في قريتها ، عن أمها التي كانت تغني وهي تعجن الخبز. روت جيلان مواقف طريفة من تركيا ، عن شوارع إسطنبول المزدحمة ، وعن المقاهي المطلة على البوسفور.

أما ديلبارا ، فصمتت لحظة ، تنظر إلى السماء التي بدأت تستعيد زرقتها بعد غيمٍ عابر. قالت بصوتٍ خافت :

ربما تكون السعادة شيئًا بسيطًا مثل هذا... ضحكة ، نسمة ، يد تمسك يدًا دون خوف.

كانت كلماتها كقطرة ندى على قلب فتحي . شعر بشيءٍ ينكسر في داخله، شيءٍ قديم اسمه الحذر المفرط. قال في نفسه : كم نخاف ، فنضيع أجمل ما في الحياة.

X

في الجولة الثالثة ، اقتصرت الرحلة على فتحي وفتون وأختيها. كانت الوجهة هذه المرة الأقصر زمنًا ، لكنها الأعمق أثرًا. حين نزلوا من القطار ، بدت جيلان كمن دخل عالمًا آخر. الأعمدة الضخمة والنقوش الدقيقة تحيط بهم ، كأن التاريخ قد قرر أن يفتح دفاتره دفعة واحدة.

قالت بانبهار :

كأنهم لم يموتوا أبدًا... إنهم هنا، ينظرون إلينا من بين الحجارة.

كان فتحي يصغي بانتباه ، يراقب وجوههم تتأمل حضارة عمرها آلاف السنين. شعر بأن الزمن يتقلّص ، وأن الإنسان ، مهما تغيّر ، يظل يحمل السؤال ذاته :لماذا نعيش ؟

فتون كانت تمشي ببطء بين التماثيل ، تشعر برهبةٍ تشبه الصلاة. تمتمت لنفسها :

يا لهذه العظمة... كيف استطاع الإنسان أن يخلّد نفسه بالحجر ؟

ردّت ديلبارا مبتسمة :

ربما لأنهم أحبوا الحياة أكثر مما خافوا الموت.

توقفت فتون ، ونظرت إليها طويلًا ، ثم قالت:

ربما لهذا السبب نحن هنا... لنتعلم كيف نحب الحياة.

في تلك اللحظة ، أحسّ فتحي أن ما جمعه بهم لم يكن مجرد رحلة ، بل عودة إلى جوهر الإنسان: حب الحياة ، والانبهار بالجمال ، والسعي لأن تبقى الذكريات حيّة مهما مر الزمن . شعر كأنه يرمم شيئًا مكسورًا في داخله ، كأنه يرقّع شقوق الروح بخيوطٍ من ضوء.

X

وفي مساء اليوم الأخير، اجتمعوا في الفندق المطل على النيل . كانت المدينة تستعد للنوم ، والأضواء تنعكس على الماء كنجومٍ تائهة . جلسوا في صمتٍ ممتلئ ، صمت لا يخلو من الامتنان.

حدّقت جيلان في الأفق الطويل ، ثم التفتت إلى فتون قائلة :

لقد كانت أيامًا لا تُنسى... لكن يجب أن أعود إلى تركيا. هناك أمور تحتاج حضوري.

سكتت لحظة ، وكأنها تودّع قلبها قبل رحيلها ، ثم أضافت :

سأعود... أعدكما بذلك.

احتضنتها فتون بحرارة ، وكأنها تخشى أن يسرق الزمن هذه اللحظة. أما فتحي، فاكتفى بنظرةٍ صامتة ، امتلأت بالامتنان والوداع في آنٍ واحد. كان يشعر أن شيئًا تغيّر فيهم جميعًا ، كأن هذه الأيام أعادت ترميم أرواحهم ، وأعادت تعريفهم بأنفسهم.

حين غادرت الأختان، بقي فتحي وفتون على ضفة النهر. كان الليل قد أسدل ستاره ، والنيل يهمس بأغنيةٍ قديمة لا يعرفها إلا من أصغى جيدًا.

قالت فتون بصوتٍ تغلبه العاطفة :

تظن أننا سنعيش مثل تلك الأيام مرة أخرى ؟

تأمل فتحي صفحة الماء ، ورأى انعكاس وجهه مكسورًا بين الموجات ، كأنه يرى ذاته القديمة والجديدة في آنٍ واحد. ابتسم وهو يشبك يده بيدها :

الأيام لا تعود يا فتون... لكنها تترك لنا مفاتيحها. يمكننا أن نصنع أيامًا أخرى ، طالما بقي فينا شغف الحياة.

سكتا لحظة ، إلا من همس النيل. كان الصمت هذه المرة ليس فراغًا ، بل امتلاءً. شعرا أن السعادة ليست زمنًا مضى ، بل ومضة تنتظر من يؤمن بها ، وأن الحياة ، مهما أثقلتها الأعباء ، تظل قادرة على أن تهبنا لحظاتٍ تبرر كل التعب.

وفي ذلك المساء ، عادا إلى غرفتهما وهما يحملان في قلبيهما يقينًا جديدًا : أن الإنسان لا يحتاج إلى الكثير ليكون سعيدًا ، بل يحتاج فقط إلى قلبٍ مفتوح ، ويدٍ تمسك بيدٍ أخرى ، وشجاعةٍ كافية ليقول للحياة : نحن هنا ، ولن ننسى أن نبتسم.

ظلالٌ بين العمل والحب

كانت ثلاثة أيامٍ ثقيلة قد مرّت منذ رحيل جيلان وديلبارا، أيامًا محمّلة بالصمت والوجوم ، كأنّ الجدران نفسها تبكي غيابهما. جلست فتون في ركنٍ من غرفتها تحدّق في الفراغ ، وقد تجمّدت نظراتها بين صورٍ باهتةٍ تتراقص على جدران الذاكرة . لكنّ فتحي ، وقد ضاق صدره بصمتها الطويل ، دخل عليها بنبرةٍ تحمل شيئًا من الحزم والرجاء معًا :

"م نذ أكثر من ثلاثة أشهرٍ وأنتِ بعيدة عن العمل ، ألا يكفي ما مضى ؟ أرجوكِ تهيّئي للنزول معي غدًا

رفعت رأسها نحوه بعينين متعبتين، وقالت بصوتٍ خافتٍ كأنه يأتي من أعماق بعيدة :

" دعني أعيش حزني يا فتحي ، لم تندمل جروحي بعد ، لا أريد أن أواجه الناس

اقترب منها بخطواتٍ هادئةٍ ، ووضع يده على كتفها برفقٍ كأنه يوقظ في داخلها الحياة :

" العمل يا فتون دواء ، لا تدعي الحزن يحوّلك إلى ظلّك القديم ، أنتِ قوية ، وقد مررتِ بما هو أصعب

لكنها هزّت رأسها نافية ، فعاد صوته يحمل شيئًا من الإصرار:

"ا رتدي ملابسك بسرعة ، ودعينا نغادر معًا . لا أريد أن أراكِ سجينةً لذكرياتٍ تؤلمك

قامت بتثاقلٍ و بطء من مكانها ، واتجهت نحو الخزانة . أخذت بدلةً سوداء قاتمة اللون ، وارتدتها ببطءٍ كأنها تلبس الحداد مرةً أخرى . نظر إليها فتحي طويلاً ثم قال بنبرةٍ فيها عتابٌ ممزوجٌ بالقلق :

"كفى سوادًا يا فتون ، لقد لبستِ الحزن بما يكفي ، الحياة لا تُستعاد إلا بالألوان

ثم مدّ يده إلى الخزانة وأخرج فستانًا ورديًّا قصيرًا كانت قد نسيته منذ زمن . رفعه أمامها مبتسمًا وقال :

" هذا يليق بكِ أكثر ، أعيدي إلى نفسك الضوء الذي فقدتِه

ترددت لحظةً ، ثم تمتمت وهي تنظر إلى الفستان بدهشة:

"هذا فستان شبابي يا فتحي ، لا يليق بعمري ولا بمكانتي في العمل

اقترب منها وقال بثقةٍ ودفء :

" أما السنّ، فأنت في عيني شابة ، لا تُقاس الأعمار بالسنين بل بالنبض نبض الحياة، ودعي من حولك في العمل يستمدّون منك الحيوية كما كنتِ دائمًا

ابتسمت بخجلٍ خافتٍ، ثم ارتدت الفستان أخيرًا ، وعندما انعكست صورتها في المرآة ، شعرت للحظةٍ كأنها تعود إلى نفسها القديمة . لكنّها لمحت في عينيه نظرة إعجابٍ جعلت وجهها يحمرّ ، فقالت محاولةً إخفاء ارتباكها :

" هل يُعجبك هذا المنظر ؟ "

ضحك فتحي وقال مازحًا :

" بل يُدهشني! كأنّي أرى حورية البحر خرجت من حزنها لتتنفّس النور

ضحكت رغمًا عنها ، وكان في تلك الضحكة أول خيط ضوءٍ بعد ظلامٍ طويل.

X

في اليوم التالي ، وبينما كانت تتمشّى في أروقة المول بعد انتهاء دوامها ، اقتربت منها فتاةٌ شابةٌ بملامح مضطربة ، ووقفت في طريقها قائلةً بنبرةٍ مترددة :

" أريد أن أتحدث معكِ في أمرٍ مهم ، من فضلك

نظرت إليها فتون متفاجئة ، ثم قالت بتهذيبٍ:

" تفضّلي، من أنتِ ؟ " .

قالت الفتاة بصوتٍ خافتٍ كمن يلقي اعترافًا مؤلمًا :

" أنا نوال... زوجة زوجكِ فتحي

تجمّدت الكلمات على شفتي فتون، و هى ترى فتاة صغيرة في عمر الزهور ثم قالت ببرودٍ يخفي اضطرابها :

" زوجة فتحي ؟! ماذا تقولين ؟ تعالي نجلس ، احكي لي بهدوء ما تريدين قوله

جلستا في أحد المقاهي الهادئة ، وكانت نوال ترتجف وهي تطرق فنجان القهوة بأطراف أصابعها . وبعد لحظة صمتٍ طويلة قالت :

" تزوجني فتحي رغمًا عني... ومنذ ذلك اليوم لم يقترب مني. لا أدري إن كنتُ زوجته حقًّا أم مجرد اسمٍ في ورقة . أريد أن أتحرر من هذا الارتباط ، أريد الطلاق . أرجوكِ ساعديني ، تحدثي إليه

حدّقت فيها فتون طويلاً، ورأت في عينيها مزيجًا من المرارة والذنب . لم تجب ، بل أخرجت هاتفها واتصلت بفتحي قائلةً بصوتٍ ثابت :

" تعال فورًا إلى المقهى ، هناك أمر لا يحتمل الانتظار

لم تمضِ دقائق حتى كان أمامهما ، وعلى وجهه دهشةٌ وحيرة . نظر إلى نوال ، ثم إلى فتون ، وقال متسائلًا :

" ما الذي يحدث هنا ؟ " .

أجابته نوال بشجاعةٍ مفاجئة:

" أريد الطلاق، لم أعد أحتمل هذا الوضع

ارتسمت على وجه فتحي ابتسامةٌ باهتةٌ فيها شيءٌ من السخرية والخذلان معًا ، وقال :

" في البداية رفضتِ الزواج، ثم اتهمتِني بقتل من كنتِ تحبين، ورغم كل ذلك لم أتركك بلا سندٍ ، أعطيتك عملًا لتحفظي كرامتك . والآن... ماذا ؟ وجدتِ عريسًا جديدًا ؟ "

صرخت نوال بانفعالٍ وهي تدمع :

" عريسًا آخر ؟ لتقتله أنت أيضًا ؟ "!

ساد الصمت لحظة ، تكسّرت فيها النظرات بين الثلاثة كقطع زجاجٍ متناثرة . نظر فتحي إليها ببرودٍ وقال بصوتٍ هادئٍ لكنه حادّ

" لن أطلقكِ يا نوال. ابقي معلّقة كما شئتِ ، وإن أردتِ الخلاص ، فارفعي دعوى طلاق. سأدفع للمحامي إن لزم الأمر المصاريف عنك . بل سأرفع عليكِ دعوى نشوز أيضًا

ثم استدار مغادرًا، تاركًا وراءه فتون مذهولةً بين الغضب والشفقة . نظرت إلى نوال التي كانت تبكي بصمتٍ ، وقالت في حزنٍ عميق:

" لقد كنتِ في حربٍ لم تختاريها ، لكنه أيضًا ضحية جراحٍ لم تلتئم

رفعت نوال رأسها والدموع تلمع في عينيها:

" ربما، لكنّني لست قادرةً على أن أعيش حياةً ليست لي

غادرت فتون المقهى بعدها بخطواتٍ بطيئةٍ ، بينما كانت كلمات نوال ترنّ في أذنيها كجرسٍ من الذكريات . شعرت أن داخلها شيئًا ينكسر ، شيئًا كان يُخفي خوفًا قديمًا من فقدان ذاتها مرةً أخرى . رفعت رأسها نحو السماء ، وقالت في سرّها:

" ما بين العمل والحب، تظلّ المرأة تسير على خيطٍ رفيعٍ من النار، لا تدري أيّهما سيحرقها أولاً

حين تتقاطع العيون

مرّ شهر كامل منذ رحيلها، وكانت القاهرة تستيقظ على ضباب خفيف يزحف فوق أسطح المطار حين هبطت الطائرة القادمة من إسطنبول . خرجت ديلبارا بخطوات مترددة ، كأنها تعود إلى زمن قديم دفنته في الذاكرة . بدا كل شيء مألوفًا وغريبًا في الوقت نفسه : ضجيج المطار ، رائحة البن المحمص ، نداءات الركاب ، والعيون التي تتفحصها كأنها تبحث عن سرٍّ ما في ملامحها.

وقفت أمام ضابط الجوازات نفسه الذي قابلها أول مرة . رفع رأسه ، نظر إليها بدهشةٍ خفيفةٍ ثم ابتسم وقال مازحًا :

عُدنا إذن يا آنسة ؟ هل فتحي باشا البهلي في انتظارك هذه المرة ؟

ابتسمت ديلبارا ابتسامة غامضة وقالت :

لا ، لن ينتظرني أحد. لكني أعرف الطريق إلى قصره.

ضحك الضابط وقال بنبرة ودٍّ لم تخلُ من الغزل :

في هذه الحالة سأوصلك بنفسي. نصف ساعة فقط ، لا تقلقي.

كانت تنظر إليه بعينٍ نصفها شكٌّ ونصفها فضول . تركت الكلمات تتهادى بينهما كأنها حوار داخلي طويل لم يُقل بعد . وفي صالة

الأمتعة ، كان العسكري يلتقط حقائبها واحدة تلو الأخرى بإشارةٍ من إصبعه . لم يسألها أحد عن شيء ، كأن الأوامر كانت قد سبقتها.

حين خرجت إلى البوابة ، فتح الضابط باب السيارة الخلفي ،

لكنها لم تنتظر . تقدمت بثقة وجلست إلى جواره في المقعد الأمامي ، كأنها ترفض أن تكون ضيفة أو محمولة على الأوامر .

قالت له بصوتٍ خافت :

سأرشدك إلى الطريق بنفسي.

ابتسم وقال بثقةٍ مشوبةٍ بالمرح:

أنا أعرف طريق القصر أفضل مما تظنين.

لم يدم الصمت بينهما طويلاً . كانت القاهرة تزدحم بالضوء والغبار ، وكان كل شارع يذكّرها بشيءٍ من ماضيها . تنظر من النافذة كأنها تبحث عن ملامح وجهٍ ضاع منها في الزحام.

فالت بنبرة سخرية :

هل تعامل كل المسافرات بهذه العناية؟

قال وهو يبتسم:

لا ، ولكنك لا تبدين كمسافرة. أنتِ عائدة إلى وطنك الثاني.

سكتت قليلاً ، ثم قالت :

الوطن ليس المكان الذي نولد فيه، بل الذي نجد فيه أنفسنا.

كانت الجملة كأنها طيف فكرة عبر ذهنه، فالتفت إليها مأخوذًا بصراحتها. بدت له مختلفة ، تمتزج فيها ملامح الحزن بالعزم ، والضعف بالقوة ، كأنها تحمل قصة لا تريد أن تُروى.

وحين وصلت السيارة إلى القصر، التفتت نحوه وقالت بهدوءٍ فيه شكرٌ ووداع :

ادخل ، اشرب فنجان قهوةٍ قبل أن تعود.

لكنّه رفض مبتسمًا:

في المرة القادمة ، سأكون ضيفكم. وعد.

نزلت من السيارة بخطواتٍ متأنيةٍ، والنسيم يداعب خصلات شعرها الذهبي ، بينما كانت عيناه تتابعانها كأنهما تبحثان عن شيءٍ ضاع للتو.

X

في طريق العودة، كان العسكري يجلس خلفه وقد غلبه النعاس. نظر إليه الضابط مبتسمًا وقال لنفسه:

حتى هو لم يقاوم دفء هذا النهار.

لكنه في داخله كان يعيش تيارًا خفيًا من المشاعر : دهشة، رغبة ، وربما خوف من انبعاث شيءٍ كان يظنه انتهى . وحين وصل إلى فيلته في المعادي ، استقبلته ابنته ريهام بابتسامةٍ مشاكسة ، تلمح بريقًا غريبًا في عينيه.

ما الخبر السعيد يا أبي ؟ الذي سوف تزفه إلي يا صديقي ، وجهك يشرق كأنك رأيت حلمًا تحقق.

ضحك وقال وهو يخلع سترته :

رأيت اليوم حورية من الجنة.

ضحكت ريهام بدهشةٍ ومرح :

حورية ؟ إذن ستتزوج أخيرًا ؟ أريد أن أراها لأعرف مقاييس الجمال التي تخلب عقل أبي.

سنزورها قريبًا ، ستعرفين كل شيء بنفسك . لماذا لا نذهب اليوم ؟ أو غدًا ؟ أريد أن أطمئن على مستقبلك .

توقّف للحظةٍ ، نظر إلى ابنته وكأنه يسمع في داخل نفسه صدى صوت ديلبارا وهي تقول " :الوطن هو حيث نجد أنفسنا شعر بشيءٍ يوقظه من سباته القديم . كان في تلك الجملة المفتاح الذي لم يفهمه منذ سنين.

جلس في شرفته يتأمل الليل القاهري الهادئ ، بينما تسكن في داخله صورة المرأة التي دخلت حياته من بوابة المطار ، تمامًا كما دخلت أفكاره دون استئذان. كانت القصة قد بدأت ، لكنه لم يكن يعرف بعد أيُّهما عاد إلى الآخر : هو أم هي.

وهكذا ظل الليل طويلًا ، يكتب على جدران الذاكرة أولى فصول حكايةٍ جديدة ، لا يعرف أحدٌ إلى أين ستقودهما.

سهرة تحت ظلال الضوء الخافت

كانت الساعة تقترب من الثامنة مساءً حين اتصلت **ديلبارا** بضابط الجوازات ، بصوتٍ رقيقٍ يحمل شيئًا من التردد والانتظار ، وقالت له:

" إذا كان الوقت يسمح ، فنحن في انتظارك الليلة ، ستكون سهرة بسيطة... شبه عائلية .

جاءها صوته واثقًا ، عميق النبرة :

" سآتي... ومعي ضيفة عزيزة .

سكتت لحظة ، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة لم ترها سوى مرآتها ، وقالت :

" أهلاً بك وبضيفتك... نحن ننتظركم .

أغلقت الهاتف، ونهضت بخفةٍ تداري بها اضطرابها الداخلي ، وبدأت تشرف على كل ما سيقدَّم للضيوف . وجهت مديرة المنزل إلى رصّ الأطباق بعناية فوق مائدة الطعام الطويلة ، وأوصت بأن تكون الزهور البيضاء في المنتصف ، لأن اللون الأبيض كما تقول دائمًا " يطهر المكان من صمتٍ ثقيلٍ يسبق اللقاءات الغامضة

ثم جلست في غرفتها تختار فستانها. لم يكن الأمر مجرد اختيار ثوبٍ، بل كان طقسًا من طقوس البوح الصامت . اختارت فستانًا بلون الليل الهادئ ، ووضعت على عنقها قلادةً كانت قد أهدتها لأختها منذ أعوامٍ بعيدة ، وأعادت ارتداءها في لحظةٍ بدت لها كأنها تعيد شيئًا من الزمن الضائع.

جلست أمام المرآة ، تنظر إلى وجهها الذي غسله الانتظار ، وتضع مساحيق خفيفة كأنها تحاول إخفاء قلقها لا ملامحها.

أما **فتون**، أختها، فقد فعلت الشيء ذاته دون أن تسألها عن الضيف أو صلته بها . كانت تعرف أن هناك شيئًا غامضًا في نبرة أختها ، شيئًا لا يُقال ، لكنه يملأ الجو بينهما . ارتدت فتون فستانًا بسيطًا ، وربطت شعرها للخلف ، بينما ارتدى **فتحي** ، زوجها ، بذلة رسمية على غير عادته ، إرضاءً لأخت زوجته التي يكنّ لها احترامًا خاصًا.

X

في الجانب الآخر من المدينة ، كان الضابط **حسام الشوربجي** يقف أمام المرآة بدوره ، يرتدي بذلته الرمادية بعنايةٍ تشي بأنه يدرك أهمية هذا اللقاء . ألقى نظرة على ابنته **ريهام** وهي تستعد للخروج ، وقال بنبرةٍ حازمةٍ ولكنها مفعمة بالأبوة:

" ريهام، لا تبالغي في مكياجك الليلة. أريدك كما أنتِ ، بسيطة ، هادئة

ضحكت الفتاة بخفةٍ وقالت:

" حسنًا يا أبي... لكن أليس اللقاء رسميًا بعض الشيء؟"

أجاب بابتسامةٍ غامضة:

" بل هو لقاء عادي... لكنه قد يفتح أبوابًا غير عادية

وقبل أن تنزل من الدرج ، قالت ريهام:

"سأحضر باقة ورد وبعض الشوكولاتة، فالنساء لا يقاومن الشوكولاتة

فقال مبتسمًا:

" لقد فعلتُ ذلك بالفعل ، كل شيء جاهز في السيارة

X

رنّ جرس الباب ، بعد قليل ، فهرعت مديرة القصر لاستقبال الضابط وابنته. كان في ملامحهما شيء من الوقار الممزوج بالخجل. جلستهما الأولى في صالة الاستقبال الواسعة كانت أشبه بمشهدٍ صامتٍ في مسرحٍ قديم، لا يتحرك فيه إلا الضوء المنعكس على الكؤوس الكريستاليةً.

دخلت **ديلبارا** برفقة أختها وزوجها. بدا المشهد دافئًا رغم الحذر الأولي. قالت ديلبارا وهي تبتسم :

" أهلاً بكما في بيتنا المتواضع

فأجاب الضابط بنبرةٍ لبقة:

" بل هو بيتٌ أنيقٌ يحمل عبق الماضي. اسمحي لي أن أعرّف نفسي... أنا حسام الشوربجي، وهذه ابنتي ريهام

نظرت **فتون** بدهشةٍ طفيفة ، وقالت ممازحةً :

" كنت أظنها زوجتك ، لا ابنتك "!

فضحكت ديلبارا بخفةٍ وقالت:

" وأين زوجتك يا حضرة الضابط ؟"

ساد صمتٌ قصير ، ثم أجابت ريهام بصوتٍ خافتٍ فيه ظلّ حزنٍ قديم:

" رحلت... منذ سنوات ، ولها الرحمة

انخفضت الأعين احترامًا، وتغيرت ملامح الجوّ في لحظةٍ واحدة، وكأن نسمةً باردة عبرت بينهم.

بدأ الحديث يدور حول موضوعاتٍ عامة : العمل ، السفر، المدن البعيدة ، والذكريات . كان صوت ديلبارا ناعمًا وهي تسأل عن تفاصيل حياة الضابط في المطار ، وكان هو يجيبها بصدقٍ بسيطٍ يشي بحياةٍ منظمةٍ صارمةٍ، لكنها تخفي تحتها شجن رجلٍ يعيش وحيدًا في ذاكرته.

قالت فتون وهي تنهض:

" حان وقت العشاء، فلننتقل جميعًا إلى المائدة

تحرك الجميع إلى غرفة الطعام، حيث كان الضوء الأصفر ينعكس على الزجاج فيضفي دفئًا خفيفًا على المكان. جلست ريهام إلى يمين فتحي ، بينما جلس والدها قبالة ديلبارا. كانت مديرة المنزل تقف بينهما ، تقدم الأطباق وتنسحب بخفةٍ صامتةٍ لا يسمع لها وقع.

قالت ريهام ، وهي تنظر إلى الأطباق الشهية التي تملأ المائدة:

" آه، سأخسر الرجيم الليلة بالتأكيد ! كيف سأحافظ على رشاقتي بعد هذا الطعام ؟"

ضحك الجميع ، وكان الضابط أول من ضحك بصوتٍ مرتفعٍ منذ وفاة زوجته ، وكأن هذه اللحظة أعادت إليه شيئًا من إنسانيته.

تبادل الجميع أطراف الحديث حول الطبخ التركي والموسيقى والسفر. ومع مرور الوقت ، بدأ الحوار يتحول إلى نغمةٍ أكثر دفئًا. كانت **ديلبارا** تراقب الضابط بعينيها الهادئتين ، تحاول أن تقرأ ما بين كلماته من صمتٍ وألمٍ وذكرياتٍ دفينة.

وفي لحظةٍ من لحظات السكون ، حين خفتت الأصوات وانسحب فتحي إلى الشرفة ليدخن سيجارته ، التقت نظرات ديلبارا وحسام. كان في نظرها سؤالٌ لا يُقال ، وفي عينيه اعترافٌ لا يُفصح عنه . كان كلاهما يدرك أن هذه السهرة لم تكن مجرد لقاءٍ عابر ، بل بداية حكايةٍ قديمةٍ أعادها القدر من رماد الأيام.

X

في الخارج، كانت السماء ملبدة بالغيوم، والقمر يطلّ خجولًا من بين السحب ، كأنه يشاركهم تلك السهرة الغامضة.

قالت ريهام وهي تنظر إلى النافذة:

" يا له من ليلٍ جميل... كأنه يخفي وعدًا بشيءٍ قادم

ابتسم الضابط، ونظر إلى ابنته بحنانٍ عميق ليقرأ فكرها، ثم قال كمن يحدث نفسه:

" نعم يا ريهام، أحيانًا تكون الليالي البسيطة هي أكثرها مصيرية ..

وظلت الأصوات تتداخل بين الضحك والموسيقى الخافتة ، بينما بقيت **ديلبارا** صامتة ، تغوص في أعماقها ، تستمع إلى حوارٍ داخليٍ بين

قلبها وعقلها ، بين امرأةٍ فقدت الإيمان بالحب ، وامرأةٍ تكتشف أن في اللقاءات المفاجئة ما يوقظ فينا كل ما ظنناه مات منذ زمن بعيد .

فتون وفتحي في جلسة مصارحة

كانت الشمس تميل قليلاً نحو الغروب ، كأنها تحاول أن تسترق السمع لما سيقع تحت تلك المظلّة الكبيرة الممدودة فوق ركنٍ هادئ من حوض السباحة. وأخذ النسيم الدافئ يحرّك سطح الماء ، فتتشكل دوائر صغيرة تنكسر فيها صور النخيل والسماء.

مديرة القصر أعدّت لهما صينية مترفة من الفواكه ، قطع الأناناس اللامعة ، حبات العنب كخرزٍ قديم ، فستقٌ مكشوف ، لوزٌ محمّص وترمس شاي تفوح منه رائحة الهيل . أمّا ديلبارا، فقد كانت خارج القصر منذ الصباح ، تاركة الصمت فرصةً لينطق.

فتون جلست قريبة، أقرب من المعتاد . كانت كأنها تحرس مساحةً غير مرئية بينهما ، مساحة تريد أن تقول فيها شيئاً لكنها تخشاه . وبطريقتها التي تجيد فيها إخفاء القلق خلف حنانٍ زائد ، راحت تطعم فتحي قطعاً من الفاكهة ، تضعها قرب شفتيه كما لو أنها أمٌّ تدلل طفلها الذي كبر فجأة ، ثم تسقيه الشاي في كاسات صغيرة.

فتح فتحي عينيه عليها... تلك النظرة التي يعرفها جيداً: نظرة امرأة تريد أن تقتحم جداراً يحمي رجلاً من نفسه.

قال لها وهو يرفع حاجبه باستغراب خفيف:

كأنّك تريدين قول شيء... لكنك لا تعرفين من أين تبدأين، صح ؟

ابتسمت فتون ، ابتسامة هادئة ، محمّلة بنبرة اعتراف.

تقرأ أفكاري؟

أجابها فتحي بابتسامة أكثر رقة ، كمن يزيح السحب عن السماء:

عيونك تقول... وراء هذا الحنان هناك كلام مخبأ . كلام ينتظر إذناً بالخروج.

أطرقت قليلاً ، وأصابعها تعبث بحبة لوز. ثم قالت بصوتٍ رقيق:

نعم... هناك شيء. لكني خائفة... خائفة أن تُغضبك.

أخذ نفساً عميقاً وجلس أقرب إليها ، وصوته بدا أكثر هدوءاً من الماء الساكن حولهما:

لا يمكن أن أزعل منك، مهما كان الكلام. خصوصاً إن كنتِ تتحدثين عن... الصفحة التي أحاول أن أغلقها. قولي. لا تخافي.

سكتت طويلاً ، وكأنها تفتّش عن كلمة لا تنزف جرحاً. ثم قالت بصوتٍ يشبه الهمس:

هل... تزوجت نوال عن حب؟

تصلّبت كتفاه لحظة ، ثم قال بسرعة وبحدّة تشبه سكيناً طُعنت في ذاكرته :

لا. تزوجتها... عن عناد.

رفعت فتون رأسها بدهشة ، كمن يسمع فكرة لا تسكن قاموس العلاقات البشرية.

عناد؟ هل يوجد زواج عن عناد ؟

انكمش صوته فجأة ، وتبدّل. صار صوت رجلٍ عاد إلى صورةٍ قديمة ، صورة لم تُغلق رغم محاولته الدائمة :

رأيتها واقفة مع شاب غريب... ليس من حيّنا . كانا متشابكي الأيدي، قريبين بشكل... ما زلت أكرهه . حين ذهبت إليه وسألتها :

من هذا ؟

قالت بوقاحة :

"إنت مالك ؟"

جرحت كرامتي تلك الكلمة... جرحت رجولتي. تهددتُها. قلت لها: بكرة أجي بيتكم أخطبك، وأتزوجك غصب عنك.

ثم سكت ، وكأن الصورة تكبر وتبتلع ما حولها.

في الليل رحت لبيتهم. طلبت يدها من أبوها... لكنه رفض. قال إنها مخطوبة. ما اهتمّيت. ثاني يوم جبت المأذون واثنين من الشهود. وتم الزواج بالقوة... بعد ما هددتها إني أقتل أبوها لو رفضت.

كانت الكلمات تسقط في أذن فتون كحجارة في ماء عميق . ارتعشت أصابعها قليلاً ، ثم قالت بحيرة واضحة :

–إذا كانت... إذا كانت تريد استمرار الزواج ، فربما ، ربما يجب أن نحضرها هنا. تعيش معنا... كزوجة.

فجأة ، كأن ناراً اشتعلت تحت جلده. ارتفع صوته بغضب:

لا! ما أريدها تدخل هذا البيت. ما أريد وجودها في حياتي! هي... هي بلغت الشرطة عني. بعد ما مات حبيبها... وقفت في طريقي في المول، أمام الناس، وقالت إنها حامل... ثم تتجرأ وتعترض طريقك أنت عشان تطلب الطلاق !

فتون شدّت كفيها فوق حجرها ، وأحست بشيء من الغضب يتسرّب إلى صوتها :

إذن... طلقها. على الأقل ترتاح أنت، وتستريح هي .

لكنه بدا كأنه لا يسمع. كأن كلمتها لم تصل أصلاً.

كان يحدّق في شيءٍ لا تراه هي ؛ ربما في جدران من ذكريات لا يريدها ولا يستطيع إزالتها.

تركت لها شقتي... سكنت في شقة ثانية في نفس العمارة. أعطيتها مصروف يكفيها ويكفي أبوها. ما قصرت بشيء . كنت أرسل لها كل ما تحتاجه ، حتى ملابسها . رغم إني منعتها تطلع من البيت... لكنها كانت تطلع. تروح تقابل حبيبها.

قالت فتون بعصبية لم تستطع إخفاءها:

طلّقها، فتحي. لتعيش أنت، وتعيش هي. كفاية دوائر مغلقة. كفاية جروح.

*

كانت فتون تسمع كلماته وكأنها غير معنية، ثم فجأة تشعر أنها في قلب العاصفة . ترى رجلها ، فتحي ، كطفل كبير ممزق بين قوته وضعفه. بين رجولته المجروحة وغيرته القديمة.

تسأل نفسها :

هل أحبه حقاً... أم أحب ضعفه ؟ هل أحاول إنقاذه... أم أنقذ نفسي منه ؟

وهل الخوف الذي يرتجف في صدرها الآن... من الماضي الذي يسردُه ؟ أم من المستقبل الذي لا تعرف شكله ؟

كانت تريد أن تفهم . أن تمسك خيط الحقيقة ، ولو كان يلسع أصابعها.

*

كان فتحي يشعر أنه يتكلم لأول مرة بصدق... وربما بالخوف لأول مرة أيضاً.

لماذا أحكي هذا الآن؟

هل أنا في جلسة اعتراف... أم في جلسة تخلٍّ؟

فتون تنظر إليّ كأنها ترى رجلاً آخر... رجل لا أعرفه. يتنفس.

ربما... أنا ما زلت ذاك الشاب المتهور الذي رفض كلمة "مالك؟" أكثر مما أحب كلمة "زوجتك". ربما... لم أحب نوال يوماً. ربما كان كل شيء محاولة لإنقاذ رجولتي فقط... أو تدميرها.

*

أنهت فتون صمت الأفكار وقالت بجدية:

طلّقها يا فتحي. لتخرج من تلك الدائرة. لا أحد يستحق أن يعيش محبوساً في ثأر قديم.

*

في اليوم التالي ، ذهب فتحي إلى منزل نوال.

لمّا فتح والدها الباب ، شعر فتحي بتلك الرعشة القديمة ، رعشة ليست خوفاً بل غضباً لم يُدفن.

دخل. نوال كانت تجلس في زاوية الغرفة ، ترتدي حجاباً بسيطاً ، وتنظر إليه كما ينظر السجين إلى سجّانه القديم.

قال ببرود قاسٍ:

نوال... جئت أطلقك.

لم تتكلم. لكنها شهقت بارتياحٍ لم يخفَ على أحد.

وقّع الأوراق، ثم وقف ، وكأنه يقول كلمة أخيرة في محكمة نفسه:

اسمعي... إذا شفتِ أحد يقرب منك، أي واحد... راح أقتله. وأقتل أبوك. أنا ما أهدد. أنتي تعرفيني. لكن... عيشي حياتك. شغلك، بيتك، وأبوك معك. بس... لا تلعبين بالنار مرة ثانية.

خرج.

لكن شيئاً في قلبه لم يخرج معه.

*

عاد فتحي في المساء.

وجد فتون جالسة قرب المسبح ذاته، وكأن الزمن لم يتحرك ، إلا أن نظرتها تحولت... إلى امرأة ترى الطريق أمامها أكثر وعورة مما كانت تظن.

جلس بقربها.

سألته بهدوء:

انتهى الموضوع ؟

هزّ رأسه .

انتهى... أو هكذا يفترض أن يكون.

لكن صوته لم يكن واثقاً. كان كمن يسير خارج ذاته. كأن صوته يرتعش .

سكتت طويلاً... ثم نظرت إلى الماء، إلى انعكاس وجهها ووجهه جنباً إلى جنب ، يتماوجان فوق صفحة ساكنة. وقالت:

هل انتهى فعلاً يا فتحي ؟ أم أن النهاية... مجرد بداية جديدة لا نعرف شكلها؟

لم يُجب.

كان ينصت إلى السؤال... وإلى صداه في داخله.

ثم رفع بصره نحو السماء التي بدأت تتلون بالأرجواني ،

قال بصوت خافت لا يشبه صوته القديم :

يمكن... ما ينتهي شيء فعلاً . يمكن إحنا فقط نتظاهر إننا ننتهي.

ابتسمت فتون ابتسامة غامضة، كابتسامة امرأة أدركت أن الطريق أطول مما توقعت ، وأن الحب ليس ملاذاً دائماً... بل معركة.

ومع ذلك... كان في داخلها يقين صغير ، كطفل نائم : ربما نستطيع. ربما نعيد صياغة الحكاية.

أمسكت بيده . لم يقاوم . شعر بدفء قلبها

وبينما كانت الشمس تختفي خلف أسوار القصر، تركت النهاية بابها مفتوحاً... لشيء قد يأتي ، أو لا يأتي . لأمل ، أو خوف ، أو حكاية جديدة تكتب نفسها دون أن تستأذن أحداً.

وبقيت المظلّة ترفرف فوقهما... كأنها تحفظ السر الجديد .

حيرة

لم تكن **ديلبارا** تعرف على وجه الدقّة متى بدأ ذلك الشعور يثقل صدرها ؛ ذلك الإحساس المُراوغ بأن أحدًا يتعقّب خطواتها كظلّ لا يريد أن ينفصل عنها. كانت الفكرة تظهر أولًا كجرس صغير في رأسها ، ثم يصير ذلك الجرس طبولًا تدقّ بإيقاع مضطرب كلما خطت خطوة خارج بيت العائلة.

في تلك الليلة ، اتكأت على إطار باب غرفة أختها **فتون** ، تمسح بيدها شعرها المنسدل على كتفيها كما لو كانت تحاول تهذيب أفكارها الهاربة. وقالت بنبرة نصف هامسة ، نصف مشتعلة:

إني أرى... أن هذه الفتاة تلاحقني.

رفعت فتون عينيها عن المجلة التي كانت تقلّب صفحاتها بملل ، وقالت:

أي فتاة تتحدثين ؟ أنتِ تتصرفين بغرابة منذ أيام. .

تقدّمت ديلبارا بخطوات بطيئة ، وجلست على طرف السرير كأنّها تحمل على ظهرها ثقلًا خفيًا.

عن ريهام... ابنة الضابط . أراها كل يوم في المول . تتبع خطواتي وكأنها تعرف إلى أين سأذهب قبل أن أتحرّك.

كانت فتون تراقب تعابير وجه أختها ، تلك النظرة الممزوجة بالخوف والدهشة ، كأن ديلبارا نفسها غير متأكدة من حقيقة ما تقوله.

تتبعك؟ ربما الأمر مصادفة. المول ليس حديقة بيتكم!

هزّت ديلبارا رأسها بنفاد صبر:

ليس الأمر مصادفة... أحيانًا، عندما تدرك أنني رأيتها ، تتقدّم نحوي بابتسامة مبالغ بها وتعزمني على شرب القهوة... تقول إن الجو مزدحم وإنها تحتاج إلى جلسة قصيرة. شيء ما فيها... لا أعرف... يجعلني أشعر أن الأمر ليس بريئًا.

سكتتا. كان الصمت بينهما أثقل من كل الكلمات.

بعد لحظات، قالت فتون:

حاولي أن تواجهيها. هذا أفضل من الهروب من خيالاتك.

ابتسمت ديلبارا ابتسامة ساخرة خفيفة:

لقد فعلت. واجهتها الأسبوع الماضي. فوجدتها عكس ما توقعت تمامًا .

وماذا قالت لك ؟

قالت لي إنها تبحث عن أدوات زينة تناسب عيادتها الجديدة. تقول إنها تُجهّزها قبل أن تبدأ العمل... وإن وجودها في المكان محض صدفة.

كانت فتون ترفع حاجبيها كأنها تستنكر : وهل هذا ما أخافك؟ لكنّها لم تقل شيئًا. ربما لأنها تعرف أن أختها مختلفة في طريقة إحساسها بالأمور، أو لأنها تشعر بأن ما تخشاه ديلبارا ليس الفتاة ذاتها ، بل شيئًا آخر... أعمق ، وأشد التواءً.

اقتربت فتون منها وربتت على يدها:

هل تصدقينها الآن ؟

حدّقت ديلبارا في الفراغ ، بعينين بدتا كأنهما تُحدّقان داخلها لا خارجها.

لا أعلم... لقد بدت صادقة. لكن هناك شيء في صوتها... كأنه يحمل رسالة مخفية. كأن كلماتها تُخفي بابًا، بابًا أجهل ما خلفه.

تنفّست بعمق ، وأكملت وكأنها تكشف سرًا طال احتجازه:

أحيانًا أشعر أنها تريد أن تقول لي شيئًا مهمًا... شيئًا يتعلّق بي شخصيًا ، لا بعيادتها.

هنا، ظهر على وجه فتون ذلك الحذر الهادئ الذي تعرفه تمامًا ديلبارا: حذر من يخشى أن يتحول القلق إلى وهم ، والوهم إلى هاوية.

ديلبارا... هل تشعرين أن هناك شيئًا آخر؟

لم تجب. بل نهضت وأغلقت الستارة كأن ضوء الشارع يتطفل على أفكارها. ثم استدارت فجأة نحو أختها ، وفي عينيها برق قرار غريب:

استأذني أباك... لأنني سوف آخُذكِ معي إلى تركيا. أريدك معي هناك . وسأريك كثيرًا من التحف التي قد تناسب عيادتها... عيادتك... أيًّا يكن.

تقدّمت فتون خطوة صغيرة:

تركيا؟ لماذا الآن ؟

أريد السفر. أريد أن أبتعد قليلًا. ربما... لأعرف هل هي حقًا تلاحقني ، أم إن ذهني هو من يتلاعب بي.

*

هل أهرب ؟ أم أكتشف الحقيقة ؟ هل ريهام فتاة عادية... أم إن شيئًا في حياتي جذبها نحوي ؟ لماذا تشبه ملامحها ظلًّا من طفولتي ؟ ظلًّا لا أتذكره إلا في الأحلام...

أبي قال لي يومًا: (الذاكرة تختار ما تبقيه وما تمحوه.) فهل أنا التي حذفت جزءًا ما ؟ هل هناك قصة ناقصة ؟

كانت ديلبارا تشعر أن هناك بابًا بين الماضي والحاضر، بابًا مغلقًا بإحكام. وكلما حاولت فتحه، سمعت فيه صوتًا مكتومًا... كأنه بكاء طفل.

لا تعلم لماذا.

*

بعد يومين، قررت مواجهة مخاوفها من جديد. دخلت المول بخطوات مترددة ، تحاول أن تضبط إيقاع أنفاسها. كانت الأضواء القوية تلمع فوق رأسها وتزيد من شعورها بالتيه.

هل ستظهر ؟ هل سأجدها ؟ أم إنها ستجدني ؟ من سيجد الآخر ؟

جلست في مقهى زجاجي يطل على الطابق العلوي. طلبت قهوة سوداء ، وأمسكت بهاتفها ، لكنها لم تستطع قراءة رسالة واحدة. كانت جميع الحروف تنزلق من عينيها كما لو كانت مكتوبة بلغة لا تعرفها.

ثم رأتها. ريهام. تسير بخطى هادئة، مرتدية معطفًا شتويًا فاتح اللون ، تشبه تمامًا امرأة تخرج من صفحات رواية غامضة. كانت تبتسم... لكن ابتسامتها لم تكن موجهة لشخص بعينه ، بل كأنها تنتمي لعالم آخر.

وقفت ريهام أمام المقهى ، نظرت مباشرة إلى ديلبارا، ورفعت يدها بتحية صغيرة.

فجأة شعرت ديلبارا بشيء يضغط على صدرها ، شيء يشبه ذكرى حب قديم... أو ذكرى خوف قديم. لا تدري.

اقتربت ريهام وجلسَت دون دعوة. قالت بصوت هادئ، كأن الأمر طبيعي تمامًا:

كنت أبحث عنك.

قالت ديلبارا ، محاوِلة السيطرة على ارتجاف صوتها:

لماذا تبحثين عني ؟ أخبرتني أن الأمر يتعلق بعيادتك... فلماذا أرى في عينيك شيئًا آخر؟

ابتسمت ريهام. كانت ابتسامتها هذه المرة مختلفة... أعمق. ثم قالت:

لأنكِ... تُشبهين شيئًا أعرفه. شيئًا لم أجد له اسمًا بعد.

ارتبكت ديلبارا:

أفهمي كلامك. هل نحن نعرف بعضنا من قبل ؟

سكتت ريهام طويلًا ، ثم قالت:

ربما... وربما لا. الوجوه تتشابه أحيانًا بطريقة تُربك الأعماق.

ثم أضافت:

سمعت أنكِ ستسافرين .

شهقت ديلبارا بصوت منخفض:

مَن أخبرك ؟

أنتِ أخبرتِني... بطريقة غير مباشرة .

كيف ؟

عندما ينوي الإنسان الهرب... تُخبره عيناه

كان في كلماتها شيء أشبه بالعرافات... شيء يلامس الحقيقة دون أن يكشفها.

سألتها ديلبارا بصراحة:

هل كنتِ تراقبيني فعلًا ؟

رفعت ريهام عينيها ، نظرت إليها نظرة طويلة غير قابلة للفهم، ثم قالت:

نعم... ولا. كنتُ أبحث عن إجابة ، وكنتِ أنتِ السؤال

كاد عقل ديلبارا أن ينفجر من كثرة الدلالات ، والغياب ، والاحتمالات.

هل هي تهددني ؟ أم تحاول أن تنقذني من شيء لا أراه ؟ لماذا أشعر أن بيننا قصة ؟ أمي... هل كانت تُخفي شيئًا ؟ ذلك الحلم المتكرر... فتاة تبكي خلف باب... هل كانت ريهام تلك الفتاة التي أراها ؟ أم أنا ؟

*

دخلت فتون غرفة ديلبارا لتجدها جالسة على الأرض ، محاطة بملابس مبعثرة ودفاتر قديمة.

سألتها بقلق:

ماذا تفعلين ؟

رفعت ديلبارا دفترًا ذا غلاف جلدي وقالت بصوت مُرتجف:

كنت أبحث عن شيء... أي شيء... يدلّني عليها.

على مَن ؟ ريهام ؟

نعم... وكأن علاقتنا ليست وليدة اليوم. أشعر أن كل حياتي تُعيد ترتيب نفسها حول وجودها.

جلست فتون بجانبها وقالت:

هل تخافين منها... أم من نفسك ؟

ضحكت ديلبارا ضحكة قصيرة جدًا:

من نفسي، دائمًا.

ثم ساد صمت طويل، إلى أن قالت ديلبارا فجأة:

سأسافر. الغد. لا أحتمل المزيد

فتون نظرت إليها مليًا ، ثم قالت بعذوبة:

سأسافر معك. فقط... لا تختفي داخل خوفك.

*

كانت ديلبارا تقف أمام بوابة المغادرة، تشعر أن قلبها يركض أسرع منها. رفعت رأسها نحو الشاشة الإلكترونية ، ثم إلى الناس حولها، ثم... رأتها.

ريهام. تقف عند المدخل المؤدي إلى صالة الانتظار. لا تلوّح. لا تبتسم. فقط تنظر.

تجمدت ديلبارا.

قالت فتون ، وهي تمسك بيدها:

هل تريدين أن تتحدثي معها قبل السفر؟

هزّت ديلبارا رأسها ببطء... بعمق... بارتباك:

لا أدري... لا أدري أي شيء بعد الآن .

وانقسمت داخلها أصوات كثيرة:

قابليها. اهربي. اسأليها الحقيقة .اتركي كل شيء خلفك. الباب المغلق... اقتربي منه.

رفعت عينيها مرة أخرى نحو ريهام... لكنها اختفت.

وكأنها لم تكن موجودة أصلًا.

نادت الموظفة عبر الميكروفون:

الرحلة رقم 416 إلى إسطنبول... جاهزة للمغادرة .

تنفّست ديلبارا بعمق ، وابتسمت لفتون ابتسامة تحمل كل التناقضات الممكنة: الخوف ، الفضول ، الانكسار ، والدهشة.

ثم قالت:

لنرَ... أي باب سينفتح هذه المرة.

ومشت نحو الطائرة.

بينما ظلّ السؤال بلا إجابة:

هل كانت ريهام تلاحقها ؟

أم كانت ديلبارا تلاحق ظلًا من ماضيها؟

حائرة هى و هى تنظر إلى الأمام .

حين تتكلم الكهوف... وتُنصت القلوب

كان الاستقبال الحافل أشبه بمشهدٍ مُعدّ سلفًا في ذاكرة المكان ، كأن العزبة نفسها كانت تنتظر قدوم ريهام ، لا بصفتها ضيفةً عابرة ، بل روحًا ستترك أثرها الخفي في جدرانها ، في جذوع أشجارها ، وفي نظرات ناسها التي لم تتعلّم بعد كيف تُخفي دهشتها.

بعد ما يقرب من ساعتين من السير المتواصل، وصلت السيارة إلى تخوم العزبة . بدا الطريق كحلمٍ أخضر طويل ، تصطف الأشجار على جانبيه كحراسٍ صامتين ، تتشابك أغصانها فوق الإسفلت كأنها سقفٌ من دعاء قديم ، دعاء لا يُسمَع لكنه يُحسّ. كانت القصور متناثرة هنا وهناك ، لا تتباهى بعلوّها بقدر ما توحي بثقل تاريخها ، بيوتٌ تعرف كيف تُخفي أسرارها خلف شبابيك مغلقة ، وبيوتٌ أخرى متكوّمة على أحد الجوانب ، متقاربة كأنها تتعانق خوفًا من الريح أو من الغياب.

راحت ريهام تراقب المشهد من خلف زجاج السيارة ، وعقلها ينزلق إلى الداخل ، إلى تلك المساحة التي لا يصلها أحد. كم يشبه هذا

المكان الإنسان... فخامةٌ ظاهرة ، وبساطةٌ جارحة ، وشيءٌ ما عالق بينهما لا يُقال. كانت تعرف أنها في إجازة ، لكن قلبها ، كعادته ، لم يعترف يومًا بالعُطل. قلبها كائنٌ يعمل بلا توقف ، يُحلّل ، يُسئل ، ويُرهَق نفسه بأسئلة أكبر من طاقته.

ما إن توقفت السيارة حتى انفتحت أبواب المكان قبل أبواب البيوت. تقدّمت جيلان بخطوات واثقة ، في وجهها دفءٌ يشبه دفء الأمهات حين يستقبلن أبناءهن بعد غيابٍ طويل. خلفها كانت ديلبارا ، أختها ، تحمل في عينيها فرحًا طفوليًا لا يُخطئه النظر ، فرحًا يندفع بلا حساب ، كأنها لا تعرف بعد كيف تُقنّن مشاعرها أو تُخفيها.

اقتربت ديلبارا من أختها ، أمسكت يدها برفق ، قبّلتها ، ثم وضعتها على جبينها في حركةٍ بدت لريهام كأنها صلاة صامتة. لم تستغرب ؛ كانت تعرف هذه العادة من المسلسلات، لكنها حين رأتها حيّة ، نابضة ، شعرت بشيءٍ يتحرّك في صدرها ، شيءٍ بين الغيرة والحنين ، بين الرغبة في الانتماء والاعتراف بالمسافة التي تفصلها عن مثل هذه الطقوس البسيطة.

أخذت ريهام يد جيلان ، قبّلتها كما فعلت ديلبارا. ضحكت الأختان ، ضحكة قصيرة لكنها مشبعة بالألفة ، كأنها وعدٌ غير منطوق بالاحتواء.

قالت جيلان بنبرةٍ تجمع بين الحزم والحنان :

أظنّكما تحتاجان إلى الراحة. الطريق كان طويلًا. ستصحبكما إحدى الخادمات إلى غرفتكما ، وفي المساء نتعشّى معًا.

هزّت ريهام رأسها شاكرة ، لكن عقلها كان قد بدأ بالفعل في تفكيك المشهد.

الراحة... كلمة يقولها الناس بسهولة ، كأنها قرار ، لا حالة. كانت تعرف أن نومها لن يأتي بسهولة ، وأن هذه العزبة ، بما تحمله من تاريخٍ صامت ، ستوقظ فيها أسئلة أكثر مما تهدهدها.

X

بدأت الإجازة رسميًا في اليوم التالي ، أو هكذا أقنعت نفسها. ديلبارا وعدتها بنزهات طويلة في المعالم السياحية: حدائق ، جبال ، كهوف ، منتزهات... أسماء بدت لريهام كأنها مفردات من كتاب جغرافيا شاعري ، لا علاقة له بالخرائط بقدر ما له علاقة بالروح.

ارتدت بنطالًا واسعًا وقميصًا فضفاضًا ، لا تأنّق فيه ولا ادّعاء ، فقط ما يسمح للجسد بالحركة ، وللنفس بالتنفّس. كانت على وشك الخروج حين دخلت إحدى الخادمات مسرعة ، في صوتها ارتباكٌ لا يُخطئ:

هناك حالة وضع... السيدة في بيت آخر العزبة.

تبادلت ريهام وديلبارا نظرةً سريعة. لم تحتج ريهام إلى التفكير. جسدها سبق قرارها. الولادة لا تنتظر الإجازات ، ولا تعترف بالوعود السياحية.

أسرعن إلى بيت الحامل. المكان كان متواضعًا ، لكن التوتر فيه كثيف ، كأن الجدران تحبس أنفاسها. صرخة المرأة اخترقت الصمت ، صرخة ليست ألمًا فقط ، بل مقاومة. اقتربت ريهام ، أمسكت بيدها ، نظرت في عينيها نظرةً غارقة في الطمأنينة.

تنفّسي... أنا معك.

في تلك اللحظة ، تلاشى كل شيء آخر. لم تعد العزبة ، ولا الجبال ، ولا الكهوف . فقط جسدان يتشاركان معركة قديمة قِدم الإنسان. كانت ريهام تتحرّك بثقةٍ لا تخلو من رهافة ، بين العلم والحدس ، بين الخبرة والرحمة. كانت تشعر أن كل ولادة تُعيد ترتيب داخلها شيئًا ما ، تُذكّرها بسبب اختيارها لهذا الطريق ، لهذا التعب الجميل.

وحين خرج الطفل إلى العالم ، بصوت بكائه، انفجرت الزغاريد كأسراب طيور ، وانطلقت الرصاصات في الهواء ، لا تهديدًا ، بل إعلان حياة. عمّ الفرح الجميع ، وبكت الأم ، وبكت ريهام معها ، دون أن تدري لماذا.

ربما لأن كل ولادة تذكّرنا بأننا نجونا... مرةً أخرى.

X

في اليوم التالي ، حين هدأ إيقاع العزبة ، بدأت الرحلة التي وُعدت بها. كانت منطقة البحر الأسود أشبه بلوحةٍ سريالية ، ألوانها لا تُصدّق ، وملامحها لا تُحفظ من أول نظرة. كل شيء هناك بدا وكأنه مرسوم بعناية فائقة ، كأن الطبيعة قررت أن تُبدع بلا خوف من المبالغة.

قالت ديلبارا وهما في الطريق :

الكهوف هنا ليست مجرد صخور... إنها ذاكرة للحضارة .

ابتسمت ريهام ، ولم تُعلّق. كانت تشعر أن هذه الجملة قيلت لها هي، لا عن المكان.

كهف كاراجا استقبلهم ببرودةٍ لطيفة ، كأن الهواء هناك يعرف كيف يربّت على الرئتين. الصواعد والنوازل تلمع تحت الإضاءة ، ألوانها تتدرج بين الأبيض والعنبر والرمادي ، كأن الزمن قرر أن يرسم ببطء ، دون استعجال.

وقفت ريهام صامتة. كم يشبه هذا التكوين عقل الإنسان... طبقات تتراكم ، وأفكار تتصلّب ، وأخرى تذوب بصمت.

قالت جيلان :

يقولون إن هواءه مفيد للربو.

أجابت ريهام بهدوء :

وربما للقلوب أيضًا.

X

في مغارة تشال ، كان الضوء أكثر تنظيمًا ، والممرات أكثر وضوحًا. مقهى صغير في الداخل ، إطلالة تُشبه نافذة على اللاوعي. جلستا تشربان القهوة ، والصمت بينهما كان حوارًا بحد ذاته.

بمَ تفكّرين؟ سألتها ديلبارا.

ترددت ريهام ، ثم قالت :

أفكّر في كمّ الأصوات التي نكتمها داخلنا... لو تحوّلت إلى كهوف ، لاحتجنا عمرًا لنكتشفها.

ابتسمت ديلبارا :

أنتِ ترين العالم كحالة نفسية.

بل أراه كحوارٍ لم ينتهِ بعد.

X

في كهوف سامسون ، شعرت ريهام بثقل التاريخ. هنا عاش إنسان بدائي ، أشعل نارًا ، خاف ، أحب ، و مات. نحن لسنا مختلفين كثيرًا... فقط أدواتنا تغيّرت ، ومخاوفنا صارت أكثر تعقيدًا.

أما دير سوميلا ، المعلّق بين الجبل والسماء ، فكان أقرب إلى سؤالٍ فلسفي من كونه معلمًا سياحيًا. كهف الكنيسة في الصخرة بدا كقلبٍ محفور في جسد الجبل.

وقفت ريهام هناك طويلًا ، وعيناها تلمعان.

هل تعتقدين أن الإنسان يبحث عن الله في الكهوف لأنه يخاف الضوء ؟ سألتها جيلان.

أجابت بعد صمتٍ عميق :

ربما... أو لأنه يريد مكانًا يسمع فيه صوته الداخلي دون ضجيج العالم.

X

في تلك الليلة، عادت ريهام إلى غرفتها. جلست قرب النافذة ، تنظر إلى العتمة التي تبتلع الأشجار ببطء. شعرت أن هذه الرحلة لم تكن سياحية ، بل نفسية ، اجتماعية، فلسفية.العزبة... الولادة... الكهوف... كلها مرايا.

أغمضت عينيها ، وابتسمت .لم تكن هذه إجازة. كانت عودةً إلى نفسها.

محاولة الانتقام
حين يتشقق القلب بين النار والنجاة

لم يكن الطلاق كلمة ، بل صدعًا زلزاليًا ضرب روح نوال من الداخل.

حين نطق فتحي بشرطه الأخير ، لم تسمعه بأذنها بقدر ما سمعته بعظامها ، كأن الهواء نفسه تحوّل إلى شظايا . لم تبكِ . كانت الدموع ، على غير عادتها ، ترفض الخروج ؛ ربما لأنها شعرت أن البكاء رفاهية لا تليق بمن سُحبت منها فجأة فكرة الأمان.

حبست نفسها في البيت. الأبواب مؤصدة ، النوافذ نصف مغلقة ، والوقت سائل ثقيل ينساب بلا ملامح. لم تذهب إلى العمل ، لم تفتح هاتفها إلا نادرًا ، ولم تسأل نفسها السؤال الذي يلحّ عادة :لماذا ؟

كانت تعرف لماذا . لكن المعرفة أحيانًا أشد إيلامًا من الجهل.

في الداخل ، كان عقلها يعجّ بصوتين متناحرين . أحدهما يقول

لقد انتهى كل شيء ، أنتِ حرة الآن.

والآخر يهمس بمرارة :

الحرية التي تأتي بعد الذل ليست حرية ، بل بقايا نجاة.

كان فتحي حاضرًا في كل زاوية. في فنجان القهوة الذي لم تشربه ، في الكرسي الفارغ ، في الصمت الذي كان يومًا ما حديثًا.

قال لها يومًا : المرأة الصالحة لا تخرج كثيرًا. ويومًا آخر :العمل يفسد النساء .حتى صارت، دون أن تشعر ، بيتًا مغلقًا على روح حيّة.

+

حين لاحظ زملاؤها في العمل غيابها ، لم يكن الغياب عابرًا. نوال لم تتأخر يومًا دون عذر ، ولم تُعرف بالانسحاب .

اجتمعوا ، وتداولوا القلق همسًا ، ثم اتفقوا على زيارة مفاجئة . اختاروا ثلاث فتيات: ليلى، وسمر، وهند. ثلاثة وجوه تحمل خليطًا من القلق والفضول والنية الطيبة.

رنّ الجرس.

فتح الأب الباب ، رجل تجاوز التعب حدّ الشكوى ، يحمل في عينيه مزيج الأبوة والعجز . نظر إليهن لحظة ، ثم تنحّى جانبًا :

تفضلوا... نوال في غرفتها.

طرقت الفتيات الباب طرقا خفيفا ، كأنهن يخشين أن يوقظن وجعًا نائمًا . دخلن .

الأحضان كانت دافئة ، والقبلات سريعة ، والأسئلة حذرة.

لماذا لم تأتِ إلى العمل ؟ تبدين شاحبة... هل أنتِ بخير؟

قالت نوال بصوت مكسور لكنه ثابت:

متعبة قليلًا... فقط.

لكن العيون لا تصدّق الكلمات بسهولة . كان في نظراتهن شيء من التفتيش ، لا بدافع الفضول ، بل بدافع الخوف : ماذا لو كنّا نحن التالي؟

دخل الأب يحمل صينية عليها ثلاثة أكواب من الليمون .

كان الليمون باردًا، منعشًا، كأنه يحاول أن يكون علاجًا رمزيًا للحموضة التي تملأ الجو.

همّ بالانصراف ، لكن ليلى قالت بلطف :

لو سمحت، اجلس معنا يا عم.

جلس . وتكلم . تكلم أكثر مما توقّعت نوال.

طلقها زوجها... لعنه الله .

قالها بمرارة رجل شعر أن كرامة ابنته مُستّت أمامه وهو عاجز.

وهي حابسة نفسها هنا... وأنا أطلب منها أن تخرج ، أن تعيش.

ساد صمت ثقيل. ثم قالت هند :

يا نوال، هذا ليس نهاية العالم. عيشي حياتك، وارجعي للعمل. وعلى فكرة... مدام فتون ستأتي لزيارتك.

رفعت نوال رأسها ببطء. فتون ؟ زوجة فتحي ؟

لم تقل شيئًا.

ابتسمت ابتسامة خفيفة ، كمن يرحّب بقدر لا يفهمه :

أهلاً وسهلاً بها.

لكن في داخلها ، كان العقل يصرخ:

هل للوجع حدود ؟ أم أن الحياة تجرّب صبري فقط ؟

+

جاءت فتون في المساء. دخلت الغرفة دون ضجيج ، وجلست على حافة السرير ، كأنها تعرف المكان منذ زمن. تأملت نوال طويلاً ، ثم سألت :

هل أنتِ مريضة ؟ أطلب لك طبيبًا ؟

قالت نوال :

أشعر بضيق فقط... وسأعود إلى العمل غدًا.

سكتت فتون لحظة ، ثم قالت فجأة ، بلا مقدمات :

أعرف أن فتحي طلقك . وأعرف أنكِ حزينة... بل تتألمين.

ضحكت نوال ضحكة قصيرة ، جافة :

لا والله... كنت أتمنى أن يطلقني .

بعد أن جعلني كبيت الوقف... مفتوح للجميع إلا لي.

ابتسمت فتون ، ابتسامة امرأة تعرف أكثر مما تقول .

أعرف القصة من أولها إلى آخرها . ولهذا... سأطلب منك طلبًا غريبًا.

رفعت نوال حاجبيها، صامتة.

أولاً: عودي إلى عملك . الطلاق ليس نهاية الكون . وثانيًا... إن كنتِ ما زلتِ تحبينه ، سأجعله يردّك إلى عصمته.

تجمد الهواء .

بل... ستكونين في بيتي.

شعرت نوال كأن الأرض تميد تحتها.

أي امرأة تطلب هذا ؟ أي قلب يحتمل ؟

قالت ببطء ، وكأنها تعترف أمام مرآة :

كنت أفكر في الانتقام منه . اشتريت زجاجة ماء نار ...أردت أن أسكبها عليه.

شهقت فتون.

لكن نوال تابعت ، بنبرة خالية من الدراما:

ثم تراجعت .أعرفه... سينتقم مني أشد الانتقام .وما ذنبك؟ وما ذنب الأولاد؟

ساد صمت طويل . صمت امرأتين جمعهما رجل واحد ، وفرّق بينهما بطريقتين مختلفتين.

قالت فتون أخيرًا ، بصوت حاسم لكنه دافئ :

عودي إلى عملك أولًا . ومن الغد... أنتِ ضيفتي في بيتي .إلى أن أجد حلًا.

نظرت نوال إليها، طويلاً .لم ترَ عدوة. رأت امرأة أخرى تحاول، بطريقتها، أن تنقذ ما يمكن إنقاذه.

في داخل نوال، انطفأت نار صغيرة .لم تختفِ الرغبة في الانتقام، لكنها تحوّلت .لم تعد نار حرق... بل نار وعي.

قالت في سرّها:

ربما أقسى انتقام... أن أنجو.

في قصر فتون

حين انقضى النهار ككائنٍ مُتعبٍ يخلع ظلاله عند عتبة الغروب ، كانت فتون خاتون تمشي ونزال الزمن يرافق خطاها ، لا كخصمٍ خارجيّ ، بل كصوتٍ داخليّ يوقظ الأسئلة ويستفزّ الذاكرة. المساء كان يهبط على الطريق المؤدي إلى القصر بهدوءٍ مريب ، كأن السماء نفسها تتواطأ مع سرٍّ لم يُفصح عنه بعد. الأشجار مصطفّة كحرسٍ صامتين ، والريح تمسّ أطراف ثوبها فتوقظ فيها إحساسًا قديمًا بالسيادة ، لا سيادة المكان ، بل سيادة القرار.

دخلت القصر، فاستقبلتها الجدران العالية بما اعتادت عليه من صمتٍ مهيب. هنا ، في هذا الفضاء ، كانت الأفكار تتردّد قبل الكلمات ، والنيات تُختبر قبل أن تُعلن. امتدت طاولة الغداء ، بيضاء كصفحةٍ تنتظر أن تُكتب ، وجلست فتون إلى جانب زوجها فتحي ، استعدادًا لطقسٍ يوميّ يبدو عاديًا في ظاهره ، لكنه هذه المرة كان محمّلًا بما يفوق الطعام من دلالات.

قبل أن تمتدّ اليد إلى اللقمة الأولى ، قالت فتون بنبرةٍ متوازنة ، كمن يلقي حجرًا صغيرًا في ماءٍ راكد :

عندنا ضيفة ستجلس معنا على السفرة.

لم تُكمل الجملة حتى فُتح الباب ، ودخلت نوال . توقّف الزمن عند تلك اللحظة القصيرة ، دهشةٌ انعقدت في عيني فتحي ، ثم انحلّت في صمتٍ اختاره احترامًا لمقام زوجته ، أو ربما خوفًا من مواجهة ما كان يؤجله في داخله.

مرّ الغداء بثقلٍ غير معلن ، الكلمات قليلة ، والنظرات أكثر. وبعد أن أُزيحت الأطباق ، جلست فتون ، وجلسَت نوال إلى جوارها ، وفتحي قبالتهما ، كأن الترتيب نفسه اعترافٌ بمشهد محكمةٍ غير رسمية. قالت فتون بهدوءٍ مقصود:

أعرف أنك طلقتها لتستريح ، لكن الشرط الذي وضعته يكبّل حريتها. لاحظتُ غيابها عن العمل ، فذهبتُ إليها في بيتها ، واستَمعتُ إلى قصتها معك ، و أحببت أن أنصفها ، و أنصفك .

تحرّك فتحي في مقعده ، حاول أن يتكلم ، أن يشرح ، أن يدافع ، لكن فتون سبقته ، وحدّة نظرتها أوقفت الكلمات في حلقه:

هذا الشرط يدل على أنك تحبها ، وتخاف على سمعتها. وأمامك خياران لا ثالث لهما : إمّا أن تتركها تعيش بحريتها كاملة ، أو أن تتزوجها زواجًا رسميًا. وأنا أعرف أنكم كمصريين يجوز لكم الزواج بأربع.

هنا ، لم يعد الصمت مجديًا. قال فتحي، وصوته يحمل مرارةً قديمة:

المشكلة أنها أهانتني أكثر من مرة، وبلغت عني البوليس... كما تعرفين... قالت إني قتلتُ حبيبها.

في داخل فتون ، ارتجف شيءٌ ما. لم يكن تعاطفًا ساذجًا ، ولا قسوةً عمياء. كان ذلك الإحساس العميق بأن البشر غالبًا أسرى لقصصهم ، وأن الحقيقة ليست دائمًا ما يُقال ، بل ما يُعاش. قالت ، بنبرةٍ تجمع الحسم والحنان:

أنا أثبتُّ براءتك. والآن يجب أن نتصافى. ولا مانع عندي أن تردّها إلى عصمتك. بل أطلب منك رجاءً حارًا أن تفعل. لتعيش معنا هنا ، في هذا القصر. أما والدها فسأجعله بستاني الحديقة ، أو حارسًا للقصر.

نظر فتحي إلى نوال ، فرأى في عينيها خوفًا لم يُطفئه الطلاق ، ورجاءً لم يُعلن. قال مترددًا:

المشكلة...

قاطعته فتون هانم ، وقد ارتفع صوتها قليلًا ، لا غضبًا ، بل استعجالًا للحق:

دعنا من المشاكل. أرجوك أن تتزوجها. أنا ، كما ترى ، أصبحت عجوزًا ، وأحتاج من يرعى أطفالنا بعد مماتي.

كانت تلك الجملة كصفعةٍ رقيقة على وجه الزمن. عجوز ؟ فكّرت فتون في نفسها: الشيخوخة ليست في الجسد ، بل في التخلّي عن القدرة على الاختيار. قالت نوال ، بصوتٍ يرتجف بالدعاء:

بعد الشر عنك... ربنا يطوّل في عمرك.

X

جاء المأذون ، وانعقد القران ، وتحوّل القصر إلى مسرحٍ لفرحٍ صامت. ومع ذلك، لم يقترب فتحي من نوال. لاحظت فتون هذا البعد ، ليس بعين الرقيب ، بل بعين من يعرف أن العلاقات لا تُصلحها العقود وحدها. استدعت فتحي و قالت ، بنبرةٍ تجمع المزاح والجد:

سأكون مثل المصريين. سأتدخل عليها اليوم ، وأتأكد من ذلك ، كما يفعل أهل الريف.

ضحك فتحي ضحكةً قصيرة ، وفي قلبه سؤالٌ لم يُجب عنه: هل الزواج يعيد الكرامة أم يختبرها ؟

أما نوال ، فجلست في غرفتها الجديدة ، تتأمل الجدران ، وتُصغي إلى صوتها الداخلي: هل هذه بداية حريةٍ أم قيدٍ جديد ؟ وهل الحب الذي عاد عبر بوابة القصر قادرٌ على شفاء ما كُسر في الخارج ؟

في تلك الليلة ، كان قصر فتون أشبه بعقلٍ مفتوح ، تتجاور فيه الرغبات والمخاوف ، القوّة والضعف ، القرار والندم. وكانت فتون ، في صمتها العميق ، تُدرك أن السلطة الحقيقية ليست في أن تُصدر الأوامر ، بل في أن تُعيد ترتيب المصائر دون أن تكسر الأرواح.

وهكذا ، لم يكن الزواج نهاية قصة ، بل بداية سؤالٍ جديد: كيف نعيش معًا دون أن نفقد أنفسنا ؟ وكيف نصالح الماضي دون أن نُعيد إنتاج ألمه؟

في قصر فتون، لم تُحسم الإجابات بعد. لكن مجرد طرحها كان انتصارًا صغيرًا للإنسان على قسوته، وللخيال على واقعٍ لا يرحم.

الهروب: سمفونية الانكسار والنجاة

لم يكن الفجر في تلك الليلة فجرًا عاديًا. كان شقًّا أبيض في جسد العتمة ، يشبه جرحًا مفتوحًا في صدر الكون ، يطلّ منه فتحي على نفسه لأول مرة دون أقنعة.

أحسّ أن شيئًا ما قد انكسر في داخله ، لا كزجاجٍ يُسمع له رنين ، بل كعظمٍ روحيٍّ يتصدّع في صمت. صورته أمام نفسه اهتزّت ، انخلعت من جدار كبريائه ، وتدحرجت في دهاليز وعيه مثل مرآة مشروخة تعكس وجوهًا لم يعترف بها من قبل.

فتون... ونوال. اسمان ثقيلان كحجرين مربوطين بعنقه ، كلما حاول السباحة بهما في بحر حياته ، سحباه إلى القاع.

لم ينم. كان جسده مستلقيًا على السرير ، لكن عقله ظلّ يجوب متاهات لا تنتهي. السقف الأبيض صار سماءً بلا نجوم ، والوسادة

صخرةً باردة يضع فوقها رأسه المتعب . ومع أول أذان للفجر ، نهض كمن يهرب من نفسه قبل أن يهرب من الآخرين.

ارتدى ملابسه ببطء ، كأنه يودّع جلده القديم . فتح درج المكتب ، أخرج بعض الأوراق ، دسّها في جيبه الداخلي ، ثم سار في ردهات القصر الطويلة. كانت خطواته تطرق الأرض بخفّة مذنب ، يخشى أن يوقظ ذاكرة المكان.

عند الباب الخارجي ، لمحه أحد الحراس .

إلى أين يا بيه في هذا الوقت ؟

توقّف فتحي لحظة ، ثم قال بهدوءٍ بدا مفتعلًا :

إلى المسجد. صلاة الفجر.

لم يشكّ الحارس. وكيف يشكّ ؟ فالرجل الذي أمامه كان سيد هذا القصر ، وسيد صمته أيضًا.

X

بعد الصلاة ، لم يعرف إلى أين يمضي . هل يذهب إلى فندق ؟ ستعثر عليه فتون بشبكة اتصالاتها الواسعة ، تلك العنكبوتية التي تمتد من الصالونات الأرستقراطية إلى دهاليز السياسة والمال .

هل يذهب إلى شقته القديمة ؟ ستجده نوال ، بنظرتها التي تعرف كيف تخترق القلوب وتستخرج الأسرار.

كان يبحث عن مكان لا يعرفه أحد ، أو يعرفه الجميع دون أن يلتفتوا إليه . مكان يشبهه الآن : بسيطًا ، هشًّا ، منسيًّا.

وفجأة اهتدى إلى بيت ذلك الصبي الذي يعمل عنده في المحل.

توقّف أمام باب خشبي قديم ، دهانه متآكل ، كأنه يحتفظ بأسرار عشرات السنين . ضغط على الجرس. فتحت له أم الصبي فوزية. امرأة تجاوزت الأربعين بقليل ، لكن التعب رسم على وجهها خطوطًا أعمق من عمرها. دهشت حين رأته.

خير يا أستاذ فتحي ؟ في الوقت ده ؟

ابتسم ابتسامة باهتة .

معلش يا فوزية... محتاج أقعد عندكم شوية.

لم تسأل. في عينيه كان شيء يمنع الأسئلة.

جلس في الغرفة الصغيرة ، حيث تختلط رائحة الشاي برائحة الخبز والذكريات. تحدثا حديثًا متقطعًا حتى استيقظ الصبي. نظر إلى فتحي بدهشة ممزوجة بفرحٍ طفولي.قال الصبي ايهاب :

هتقعد معانا ؟

أيوه... كام يوم.

ثم اقترب منه ، وهمس :

بس خلي الكلام ده بينا. ما حدش يعرف.

هزّ الصبي رأسه ، كمن يحمل سرًا أكبر من عمره.

X

كانت فوزية قد ترمّلت منذ سنوات. زوجها مات فجأة ، وترك لها طفلًا صغيرًا وحياةً مفتوحة على الاحتمالات القاسية. أقسمت يومها أن تعيش لابنها وحده ، وألا تدخل رجلًا آخر بيتها قد يقسو عليه أو يشاركه قلبها. نسيت أنها امرأة. أو لعلها أقنعت نفسها بذلك.

كان فتحي قد لمح الصبي ذات يوم وهو يهرب من المدرسة ، يجلس على الرصيف قرب محله ، عيناه معلّقتان بالمارة كمن ينتظر معجزة. اقترب منه ، أعطاه سندويتشًا ، ثم بعض النقود. تكررت اللقاءات ، حتى صار الصبي صديقه الصغير ، وصار المحل ملجأه . أخبر فتحي أمه بما يفعل حتى لا تلومه ، فشكرته والدمع في عينيها.

ومنذ ذلك الحين ، صار الصبي يعمل عنده ، ويعود كل مساء ببضعة جنيهات تضيء وجه فوزية أكثر من أي مصباح.

كانت تلك الجنيهات ، و ما يحمله من بيض ، و جبنه دليل كاف حتى تترك الحدمة في البيوت .

X

كانت فوزية، أثناء إقامة فتحي ، إما في المطبخ تنظف وتعد الطعام ، أو في غرفتها تغلق الباب على نفسها. كانت تخجل من وجود رجل غريب في بيتها ، حتى وإن كان رجلًا طيبًا.

لاحظ فتحي ذلك.

وفي إحدى الليالي ، جلس الثلاثة حول مائدة بسيطة. صمت طويل ، لا يقطعه سوى صوت الملاعق.

قال فتحي فجأة :

يا فوزية... إيه رأيك نتجوز ؟

تجمّدت اللحظة .ارتعشت يدها ، وسقطت الملعقة على الطبق ، فأحدثت رنينًا بدا كجرس إنذار في صدرها.

نعم ؟

قصدي... علشان ما تحسيش بإحراج من وجودي ، ولا كلام الناس. وبعدين... (توقف لحظة) كل واحد فينا محتاج حد جنبه.

لم تكن مستعدة لهذا الاقتحام المفاجئ لعالمها الداخلي. كانت قد دفنت أنوثتها تحت ركام الأيام ، وأقنعت نفسها أن القلب قطعة حجر لا تصلح للحب.

لكن كلماته أيقظت فيها شيئًا قديمًا. نبضًا نسيته.حنينًا حاولت قتله.

خرج فتحي ، وعاد بعد ساعات ومعه المأذون والشهود. تم الزواج في بساطة تشبه المعجزات الصغيرة التي لا يلتفت إليها أحد. الجيران جاؤوا ، بعضهم بدافع الفضول ، وبعضهم بدافع الفرح الصادق.

وفي تلك الليلة ، حين أغلق الباب خلفهما ، شعرت فوزية أنها تعود امرأة من جديد ، لا أرملة ، ولا خادمة للحزن ، بل روحًا تستحق الحياة.

X

أما فتحي، فقد شعر لأول مرة منذ سنوات أنه يتنفس دون خوف. هنا ، في هذا البيت الصغير ، بعيدًا عن القصور والكاميرات والابتسامات المصطنعة ، استعاد إنسانيته.

كان قد تخلّص من سيطرة فتون ، ومن شبكة نوال العاطفية التي تخنقه . لكنه لم يكن ساذجًا.

حرص على أن يجعل ماله بعيدًا عن الأعين. وزّعه على بنوك عدة ، واستثمره في مشاريع لا تعلم عنها فتون شيئًا.

أراد أن يعيش ما تبقى من عمره بطمأنينة ، بلا ابتزاز ، بلا مساومات.

X

في الليل، حين يهدأ البيت، كان يجلس وحده قرب النافذة. يتأمل الشارع الصغير ، حيث يمر الناس ببساطتهم العارية من الادّعاء.

كان يحاور نفسه:

لماذا هربت يا فتحي ؟ هل لأنك خفت ؟ أم لأنك تعبت ؟ أم لأنك أخيرًا فهمت أن الحياة ليست ما تملكه ، بل ما تشعر به ؟

كانت روحه تردّ عليه بصمت طويل.

يتذكّر فتون: ذكاءها الحاد ، سلطتها ، طريقتها في تطويعه باسم الحب. ويتذكّر نوال: ضعفها الجميل ، حاجتها الدائمة إلى أن تكون مركز العالم. بينهما كان ضائعًا، ممزقًا، لا هذا يريده حقًا، ولا ذاك يمنحه السلام.

وهنا... وجد سلامًا صغيرًا ، هشًّا، لكنه صادق.

X

كانت فوزية تجلس قربه أحيانًا ، دون كلام . كان الصمت بينهما أبلغ من أي حوار.

وفي إحدى الليالي قالت بهدوء :

أنت حزين ؟

نظر إليها طويلاً ، ثم قال :

كنت حزين. دلوقتي... بحاول أتعلم أفرح.

ابتسمت .كانت ابتسامة امرأة استردت نفسها.

X

لم يكن هروب فتحي جبنًا ، بل كان شجاعة متأخرة . شجاعة الاعتراف بأن بعض المعارك لا تُربح ، وأن بعض الأبواب لا تُفتح إلا حين نغلق أبوابًا أخرى خلفنا إلى الأبد.

في ذلك البيت الصغير ، بدأت حياة جديدة . حياة بلا صخب، بلا ادّعاء . حياة تشبه الصلاة: بسيطة ، صادقة ، عميقة.

وكان الفجر، كل فجر، يطلّ عليه من نافذته، لا كجرحٍ في جسد العتمة، بل كوعدٍ خجول بأن النور، مهما تأخر، لا بد أن يأتي.

البحث عن المفقود
مرايا الغياب وأشباح الذاكرة

لم يكن الصباح مختلفًا في ظاهره، غير أنّ في جوفه ارتعاشة خفية ، كأن الزمن نفسه قد تعثّر عند عتبة ذلك اليوم ، وترك خلفه ظلًّا باردًا لا يُرى، لكنه يُحَسّ.

نزلت نوال إلى مائدة الفطور ، بخطى معتادة ، محاطةً بسكون القصر الذي كان يشبه صدرًا واسعًا يحتفظ بأنفاس ساكنيه. كانت الشمس تتسلّل بخجل عبر النوافذ العالية ، فتنسكب خيوطها على الأواني الفضية

، وتلمع فوق فناجين القهوة كأنها تبارك صباحًا جديدًا. جلست فتون قبالتها ، شاردة ، تقلب قطعة خبز بين أصابعها.

قالت فتون ، دون أن ترفع عينيها :

أين فتحي ؟

توقفت يد نوال في الهواء ، وارتبك إيقاع أنفاسها للحظة قصيرة ، لكنها تماسكت .

ظننتُ أنه نزل قبلي... لم أره بجانبي.

كانت الإجابة عادية ، لكن صداها داخلها لم يكن كذلك. شيء ما انكسر بصمت. حدس غامض ، لا شكل له ولا اسم ، تمدّد في صدرها مثل ضباب كثيف.

بعد الفطور ، استوقفت الحارس عند بوابة القصر. قال لها ، وهو يعدّل من وقفته العسكرية :

نزل باكرًا ، يا سيدتي ، وذهب إلى صلاة الفجر.

أومأت شاكرة ، لكنها لم تشعر بالطمأنينة. كان في العبارة فراغ خفي ، كأنها قيلت لإغلاق باب الأسئلة لا لفتح نافذة اليقين.

ذهبت إلى مكتبها في المول ، حيث كانت الحياة تنبض بإيقاع تجاري صارم ، عقود تُوقّع ، هواتف ترنّ ، أصوات تتقاطع ، ووجوه لاَ تعرف السكون. لكنها لم تجد فتحي. سألت عنه الموظفين ، فهزّوا رؤوسهم نفياً. قال لها مدير الحسابات :

لم يأتِ اليوم، ولم يرسل أي إشعار.

ارتجفت في داخلها رعشة مبهمة ، لكنها دفنتها تحت طبقات من الانضباط المهني. تابعت أعمالها كأن شيئًا لم يكن ، بينما عقلها يركض في دوائر ضيقة ، يصطدم بجدران الصمت ، ثم يعود ليصطدم بها من جديد.

عادت مساءً إلى القصر ، مثقلة بتعب لا تعرف مصدره. كانت خطواتها أبطأ ، وملامحها مشدودة. بحثت عنه في أرجاء القصر ، في مكتبته ، في الحديقة الخلفية ، في الصالة الواسعة التي كانت تضجّ بضحكهما في أمسيات بعيدة. لم تجده.

حينها فقط، انفلت القلق من عقاله.

بدأت تتصل بكل من تعرفه. أصدقاء ، معارف ، شركاء عمل ، قدامى الجيران. لا أحد لديه جواب شافٍ. كلماتهم كانت متشابهة، تدور حول جملة واحدة : " لا نعلم ". لكنها كانت تسمع خلف هذه الجملة صدى فراغٍ مخيف ، كأن العالم كلّه تواطأ على إخفائه.

طلبت من معاونيها أن يبحثوا عنه في المشافي والأقسام ، في المراكز الأمنية ، في دور الرعاية ، في كل زاوية يمكن أن تخطر على بال. عادوا جميعًا بخيبة صامتة.

أما نوال ، فقد أخذها اليأس إلى شقته القديمة. ذلك المكان الذي شهد بداياته المتعثرة ، وأحلامه الأولى. طرقت الأبواب ، وسألت الجيران ، فجاءها الجواب ذاته :

لم نره منذ زمن بعيد.

ذهبت إلى محله القديم ، حيث كان صبيٌّ يجلس أمام الباب المغلق ، يلعب بحصى صغيرة. سألته عنه ، فأنكر وجوده ، وكأن الاسم نفسه صار شبحًا لا يُرى.

عادت في الليل ، تحمل على كتفيها أثقال يوم كامل من الخوف. جلست وحدها في غرفتها ، وأغلقت الباب خلفها ، ثم سمحت للدموع أن تنهمر. لم تكن تبكي فتحي وحده ، بل كانت تبكي ذاتها ، تلك التي شعرت فجأة أنها فقدت بوصلتها ، وأن الأرض تحت قدميها لم تعد ثابتة.

X

وفي مكان آخر ، بعيدا عن ضجيج البحث والقلق ، كان فتحي يجلس في غرفة ضيقة ، يحدّق في جدار باهت اللون ، وقد هدأت في صدره عاصفة طويلة. كان قد وصل إلى مرحلة لا عودة منها ، مرحلة الحساب الصامت.

كان يعلم أن اختفاءه لن يمرّ بسلام ، وأن الأسئلة ستطارده ككلاب جائعة ، لكنه كان يرى في الغياب خلاصًا مؤقتًا ، فسحة ليعيد ترتيب حياته من جديد.

بدأ في مراجعة حساباته بدقة جراح. الأموال التي أخفاها عن فتون وزّعها على عدد من البنوك ، بحسابات معقّدة يصعب الوصول إليها ، وأسماء مستعارة، ومسارات لا تلتقي. فتح حسابًا باسم زوجته ، لا

حبًّا فيها بقدر ما كان تحسّبًا من غدر محتمل. فتح محلات تجارية متعددة ، وسجّلها باسمها بعد أن أخذ عليها سندات تقيه شرّ المستقبل.

لم يكن يثق بسهولة. كان قلبه مثقلاً بتجارب الخذلان ، فصار عقله أشبه بقلعة محصّنة. جمع حولها فريقًا من النساء : دكتورة في الاقتصاد ، وأخرى في القانون ، وثالثة في التجارة ، ورابعة في العلاقات العامة. أراد أن يصنع شبكة أمان لا يخترقها أحد.

حين سألته فوزية عن سبب غياب الرجال، قال ببرود :

أخشى أن يتقرب أحدهم منك، ثم يبدأ بالكلام المعسول ، فتضيع الحسابات بين العاطفة والمصلحة.

كانت كلماته جافة ، لكنها تخفي خلفها خوفًا دفينًا من التكرار ، من أن يُلدغ من الجحر ذاته مرتين.

كل شيء كان يمرّ عبره. كل عقد، كل صفقة ، كل تفصيل صغير. يوقّع بالحروف الأولى من اسمه ، حتى لا يظهر في الصورة. كان حاضرًا غائبًا ، ظلًا يتحرك خلف الستار ، يدير المشهد دون أن يُرى.

X

أما فتون ، فكانت في قلب الإعصار. في خضمّ البحث الدائب عن فتحي ، فوجئت بقدوم أختيها ، جيلان وديلبارا. دخلتا عليها في لحظة كانت فيها أعصابها مشدودة إلى أقصى حد.

قالت ديلبارا بابتسامة مرتبكة :

جئتُ لأعلن خطوبتي على الضابط حسام.

في الظروف العادية ، كانت فتون ستغمرها الفرح ، وتفتح ذراعيها للاحتفال ، لكن الخبر جاء في توقيت قاسٍ. ومع ذلك، تماسكت ، وباركت ، ثم لمعت في عينيها فكرة خاطفة. التقطت الهاتف فورًا ، واتصلت بحسام.

حسام، أحتاج مساعدتك... فتحي اختفى.

ساد صمت قصير في الطرف الآخر ، ثم جاء صوته جادًا:

أعطيني كل التفاصيل.

X

منذ تلك اللحظة ، بدأ مسار جديد للبحث ، مسار رسمي ، أكثر صرامة، لكنه لم يكن أقل قسوة. توالت التحقيقات ، الأسئلة ، الاستجوابات، مراجعة الكاميرات ، تتبع الاتصالات. وكلما تعمّقوا، اتسعت دائرة الغموض.

كانت فتون تعيش بين يقظتين : يقظة الواقع ويقظة الذاكرة. في الليل ، حين يهدأ كل شيء، كانت تجلس وحدها ، وتستعيد تفاصيل حياتهما معًا. صوته، ضحكته ، صمته الطويل ، نظرته حين كان يغرق في التفكير. كانت تسأل نفسها : هل كانت تعرفه حقًا ؟ أم أنها كانت تعيش مع صورة صنعها عقلها لتحتمل الحياة ؟

كان الحوار الداخلي يمزّقها : ربما رحل لأنه تعب... ربما هرب من شيء لم أره... أو ربما أراد أن يختفي ليجد نفسه من جديد...

لكنّ صوتًا آخر كان يهمس في أعماقها : وهل يحقّ له أن يترك وراءه هذا الفراغ ؟ هذا الخوف؟ هذا الضياع ؟

كانت تمشي في القصر كغريبة ، تلمس الجدران كأنها تبحث عن أثره في الذكريات العالقة بين الحجارة . كل زاوية كانت تنطق باسمه ، وكل صمت كان يفضحه.

أما هو ، فكان يعيش صراعه الخاص. في وحدته، كان يستعرض حياته شريطًا طويلًا من التناقضات. نجاحات كبيرة، وانكسارات صامتة. حبّ قديم لم يكتمل ، وخوف لم يُهزم. كان يشعر أنه يعيش على حافة هاوية، وأن اختفاءه ليس سوى محاولة يائسة لتأجيل السقوط ، تأجيل المحاسبة .

في إحدى الليالي ، جلس يكتب. لم يكن يخطّ رسالة ، بل كان يحاور نفسه. كتب عن طفولته ، عن أبيه القاسي ، عن أمّه الصامتة ، عن الخيبات الأولى التي علّمته ألا يثق. كتب عن نوال ، عن قوتها وضعفها ، عن تلك النظرة التي كانت تخترقه حين تصمت.

مزّق الورقة بعد أن انتهى. لم يكن مستعدًا للاعتراف ، لا لنفسه ولا لغيره.

استمر البحث ، تحوّل اسم فتحي إلى لغز ، وإلى حديث المجالس. بعضهم قال إنه هرب بأمواله ، وبعضهم زعم أنه قُتل ، وآخرون رأوا في

اختفائه مغامرة رومانسية غامضة. لكن نوال كانت ترفض كل التفسيرات الجاهزة. كانت تؤمن، في أعماقها، أن وراء الغياب قصة أعقد من أن تُختزل في شائعة.

ذات مساء، جلست مع حسام في مكتبها. قال لها بنبرة هادئة:

لا أثر ماديًّا له. لا سفر رسمي ، لا معاملات حديثة باسمه ، لا تحركات مصرفية مباشرة. كأنه تبخّر.

ابتسمت ابتسامة باهتة :

فتحي لا يتبخّر... هو فقط يعرف كيف يختبئ.

نهضت ، واتجهت نحو النافذة. كان الليل يهبط ببطء ، يكسو المدينة برداء من الغموض. شعرت فجأة أنها تقف على حافة زمنين: زمن كان فيه حاضرًا بكل ثقله ، وزمن صار فيه غائبًا بكل فراغه.

همست لنفسها : سأجده... ليس لأنني قوية ، بل لأنني لا أملك خيارًا آخر.

X

في مكانه البعيد ، أحسّ فتحي بوخزة غريبة في صدره ، كأن نداءً خفيًّا اخترق المسافات. أغلق عينيه للحظة ، ثم فتحهما على واقعٍ لا يزال يختبئ فيه ، لكنه يعلم في قرارة نفسه أن هذا الاختباء لن يدوم ، وأن البحث عنه سيقوده في النهاية إلى مواجهة لا مهرب منها: مواجهة مع ذاته قبل أن تكون مع الآخرين.

وهكذا ، ظلّت الحكاية معلّقة بين غياب وحضور ، بين بحث ويقين ، بين قلبٍ يفتّش عن نصفه المفقود ، وعقلٍ يحاول أن ينجو من ثقله. وفي هذا التعليق ، كان يتشكّل مصير جديد ، لا يعرف أحد كيف ستكون نهايته ، لكن المؤكد أنه لن يشبه البداية أبدًا.

حين انكسرت الرجولة في مرآة القصر

لم يكن القصر في تلك الليلة مجرد جدران عالية وأبواب مذهّبة ، بل كان صدرًا مكتومًا يختزن أنينًا طويلاً ، كأن كل حجر فيه قد شهد سرًّا وأبى أن يبوح به . الريح تداعب ستائر الشرفات كأنها أصابع خفية تبحث عن اعتراف ، والسماء فوقه مثقلة بغيوم تشبه الأسئلة التي لم تجد جوابًا.

في مكان آخر من المدينة ، كان الضابط حسام يسير في ممرّات قسم الشرطة بخطى محسوبة ، لكن عقله لم يكن في الملفات المكدّسة أمامه ، بل في اسم واحد يتردد في داخله كنبضٍ خافت : فتحي.

جلس خلف مكتبه ، وأطرق طويلاً.

قال في سرّه :

هل أبلّغ ديلبارا وفتون بمكانه ؟ أم أذهب إليه وحدي ؟ أأقتحم عليه عزلته أم أترك له حقّ الاختباء ؟

كان يشعر أن القضية لم تعد قضية غياب رجل عن قصر ، بل غياب معنى عن حياة.

رفع رأسه فجأة ، وكأن قرارًا وُلد من رحم الحيرة. سأذهب إليه بنفسي.

X

كان مكتب فتحي يقع في بناية قديمة ، تشبهه في عنادها وصمتها. طرق حسام الباب طرقًا خفيفًا ، ثم دخل قبل أن يُدعى ، كعادته حين يقرر أن يواجه الحقيقة بلا مقدمات.

رفع فتحي عينيه . لم يكن في نظرته ترحيب ولا عداء ، بل برود عميق ، برود رجال أنهكهم الدفاع عن أنفسهم.

جلس حسام قبالته .صمتٌ ثقيل تمدّد بينهما كجسرٍ من زجاج.

قال حسام مباشرة ، بصوت لا يعرف الالتفاف :

لماذا تركت البيت ؟

تأمل فتحي وجهه طويلًا ، كأنه يفتش في عينيه عن شيء غير جمود رجال الشرطة ، عن لمعة إنسانٍ يفهم قبل أن يحاكم . لكنه لم يجد إلا نظرة مستقيمة ، صارمة ، تنتظر الجواب.

تنهد فتحي ، وأغمض عينيه لحظة ، ثم قال بصراحة جارحة :

لأنني فقدت نفسي هناك.

ماذا تقصد ؟

ابتسم ابتسامة باهتة.

أتعرف ما معنى أن تُجرّد من رجولتك وأنت حي ؟ أن تُدفع إلى زواج لا تريده ، فقط لأن من تحب تظن أنها تصلحك ؟

ارتجف شيء خفي في صوت فتحي ، لكنه واصل :

فتون هانم ضغطت عليّ لأتزوج نوال ، التي طلقتها ، رغم أنها تعرف قصتي معها. كانت تعرف أن قلبي لم يبرأ ، وأنني لم أتعافَ من الخذلان ، ومع ذلك أصرت... إصرارًا غريبًا ، كأنها تريد أن تثبت شيئًا لنفسها ، لا لي.

توقّف ، ثم قال بصوت أخفض :

تزوجت نوال ، لا حبًّا فيها ، بل حبًّا في فتون . أردت أن أرضيها . أردت أن أكون الرجل الذي تراه في خيالها... قويًا، قادرًا على طيّ الماضي . لكنني كلما نظرت في عيني نوال ، رأيت ضعفي.

سأله حسام بهدوء :

أجاب فتحي :

لأسباب كثيرة... بعضها يخصّها ، وأكثرها يخصّني. كنت أعيش زواجًا بلا روح ، بيتًا بلا دفء. كنت أؤدي دور الزوج ، بينما داخلي يصرخ : هذا ليس أنت.

ثم أضاف بمرارة :

والأسوأ أن صورتي اهتزت... ليس أمام فتون ، بل أمام نفسي. وأمام نوال. شعرت أنني مجرد قرار اتخذته امرأة أخرى.

سكت قليلًا ، ثم قال :

لهذا تركت القصر. لا هروبًا ، بل احتجاجًا. أردت أن تفهم فتون أنها أخطأت حين قررت عني.

ظل حسام صامتًا ، كأنه يزن الكلمات بميزان داخلي. ثم قال فجأة :

جئت إليك اليوم وأنا أنوي أن أضع يدي في يدك.

رفع فتحي حاجبيه بدهشة.

ماذا تعني ؟

أريد أن أتزوج من ديلبارا.

ساد صمت آخر ، لكن هذه المرة كان مختلفًا ؛ صمتًا مشحونًا بالمفاجأة.

ديلبارا ؟ أخت قتون طلبت ذلك ؟

نعم. لكنها قالت: لا يتم شيء إلا بموافقة الأغا... وأنت الأغا كما يقولون.

حاول فتحي أن يشيح بنظره ، أن يتفادى القرار ، لكنه وجد نفسه أمام عينين لا تعرفان التراجع.

ولماذا في القصر ؟

سأل ببرود مفتعل.

لأن الأمور يجب أن تُصلح من حيث انكسرت.

نظر فتحي إلى الفراغ ، ثم قال ببطء :

حسنًا... ليكن في القصر.

X

حين عاد فتحي إلى القصر ، كان الليل قد أسدل ستاره ، لكن الأضواء في الداخل كانت مشتعلة ، كأن البيت يرفض الظلام.

وقفت فتون في بهو القصر ، تنتظره . حين رأته ، ارتجفت ، وامتلأت عيناها بالدموع.

قالت بصوت متقطع :

سامحني.

لم يجبها ، كان ينظر إليها كمن ينظر إلى لوحة يعرف تفاصيلها لكنه يكتشف فيها فجأة شرخًا.

اقتربت خطوة :

أردت أن أصلح وضعك مع نوال . ظننت أن الزواج سيجعلك تنسى ألمك... أن تبدأ من جديد.

قال ببرود :

وهل كنتِ تصلحين قلبي أم تعاقبينني ؟

شهقت ، وكأن السؤال صفعها .

أعاقبك؟!

نعم. لأنك لم تتحملي ضعفي. أردتِ رجلاً قويًا ، لا رجلًا يتعثر.

اهتز صوتها :

أردتُك سعيدًا !

لكنك لم تسأليني ماذا أريد.

سكتت. وفي داخلها ، كانت عاصفة :

هل حقًا أحببته كما هو ؟ أم أحببت صورته كما أتمناها ؟ كانت تعترف في سرّها أنها خافت... خافت من رجل مكسور ، من حبٍّ قد يجرّها إلى الألم . فاختارت أن تصلحه بدل أن تحتضنه.

قالت بخفوت :

ربما كنت شديدة أكثر من اللازم.

لم يرد.

جلس في الصالون الكبير ، ينتظر مجيء حسام وديلبارا وجيلان .كان صمته هذه المرة صمت من قرر أن يرى الأمور حتى النهاية.

X

دخلت ديلبارا القصر بخطوات مترددة.

كانت ترتدي ثوبًا أبيض بسيطًا ، لكن عينيها كانتا تلمعان بدموع لم تجف بعد.

حين رأت فتحي ، مدت يدها لتصافحه ، ثم - كما جرت عادتهم في بلادها - قبلت يده باحترام ، وضمته إلى صدرها.

بكت.

قالت بين دموعها :

اشتقنا إليك يا أغا.

ارتعش قلبه.

لم يكن اعتاد أن يكون ملجأً لأحد ، لكنه الآن شعر أن غيابه لم يكن احتجاجًا فقط ، بل جرحًا في صدور الآخرين.

دخل حسام بعد قليل ، ومعه جيلان.

جلسوا جميعًا ، وقرأوا الفاتحة.

كان صوت حسام هادئًا ، لكنه ثابت :

اتفقت مع أختي ديلبارا على كل شيء . نريد موعدًا للملكة ، ثم نقيم حفل كتب الكتاب كما يليق.

نظر فتحي إليه طويلًا .

في داخله دار حوار صامت :

هذا الرجل لا يهرب من قراراته... فلماذا هربت أنا ؟

رفع رأسه أخيرًا و قال :

سيتم كل شيء في الفندق.

ثم التفت إلى فتون.

التقت عيناهما ، وكان بينهما تاريخ من حبٍّ لم يُحسم.

قال في نفسه :

هل نبدأ من جديد؟ أم أن بعض الكسور لا تُصلح ؟

أما فتون ، فكانت تفكر :

إن كان الحب سيعلمني شيئًا ، فهو أن أقبل الآخر كما هو ، لا كما أريده أن يكون.

انتهت الجلسة ، لكن شيئًا أعمق بدأ.

لم تكن قراءة الفاتحة مجرد إعلان زواج ، بل كانت محاولة لردم فجوة ، لإعادة ترتيب القلوب.

في تلك الليلة ، وقف فتحي وحده في شرفة القصر.

نظر إلى الحديقة التي شهدت ضحكاته القديمة ، ثم همس لنفسه :

الرجولة ليست أن أُطاع... بل أن أختار . وليست أن أبدو قويًا... بل أن أكون صادقًا.

في الداخل ، كانت فتون تصلي بصمت ، تدعو أن يمنحها الله شجاعة الاعتذار لا مرة ، بل كلما أخطأت.

أما حسام، فكان يسير خارج القصر وهو يشعر أن مهمته لم تكن أمنية، بل إنسانية.

فأحيانًا ، يحتاج القصر إلى ضابطٍ يعيد إليه النظام... لكن القلوب تحتاج إلى شجاعةٍ تعيد إليها الحياة.

وهكذا ، لم يكن الاتفاق على زواج ديلبارا نهاية حكاية ، بل بداية تصالح طويل بين صورة الرجل في عيون الآخرين ، وصورته في عينيه هو.

وفي مكانٍ ما بين العناد والحب ، كان فتحي يتعلم أن الرجولة لا تُهدى ... و لا تُفرض... بل تُولد من رحم الألم ، حين يجرؤ المرء أن يقول :

هذا أنا.

مفاجأة عقد القِران

كانت صالة الأفراح في الطابق العلوي من الفندق الكبير تتلألأ بالأنوار كبحيرة من الذهب السائل . الثريات البلورية تتدلى من السقف العالي مثل نجوم أُسرت في قفص من الضوء ، والموسيقى الخافتة تنساب في الهواء كأنها همس قديم بين عاشقين نسيهما الزمن.

المدعوون بدأوا يتوافدون تباعًا ؛ أقارب الضابط حسام ، زملاؤه في العمل ، أصدقاؤه القدامى الذين جمعته بهم سنوات الدراسة والخدمة.

على الجانب الآخر من القاعة ، تجمعت صديقات فتون المقربات ، تتبادلن الضحكات والتوقعات والهمسات الصغيرة التي ترافق عادة مثل هذه المناسبات.

أما فتون هانم، فكانت تجلس على طاولة قريبة من الكوشة ، في موقع يتيح لها أن ترى القاعة كلها دون أن يراها أحد بوضوح . كانت ترتدي فستانًا كحليًا بسيطًا ، أنيقًا دون مبالغة ، ينساب على جسدها بنعومة . لكن وجهها ، رغم هدوئه الظاهري ، كان يحمل تلك الظلال الخفية التي لا يراها إلا من يعرف جيدًا كيف يقرأ الأرواح.

بجوارها جلست نوال ، زوجة زوجها ، التي بدأ بطنها ينتفخ قليلًا معلنًا عن حياة جديدة تنمو في صمت داخلها . كانت تمسح على بطنها أحيانًا دون وعي ، كأنها تطمئن الجنين على أن العالم في الخارج ليس قاسيًا كما يبدو.

قالت نوال مبتسمة وهي تنظر حولها :

واضح إن الفرح سيصبح الليلة جميلا.

ابتسمت فتون ابتسامة خفيفة ، لكنها لم تجب فورًا . كانت عيناها تتنقلان بين الوجوه ، بين الطاولات ، بين الأبواب .

داخلها ، كان صوت آخر يتكلم.

لماذا أشعر أن شيئًا سيحدث الليلة ؟ شيء لم أستعد له... شيء يشبه القدر حين يقرر فجأة أن يعيد ترتيب حياتك دون إذنك.

تنهدت بهدوء ، و أجابت أخيرًا :

الأفراح الكبيرة دايمًا تكون فيها مفاجآت

ضحكت نوال قائلة:

يا رب تكون مفاجآت حلوة".

لم تجب فتون.

لأن قلبها ، لسبب لا تفهمه ، لم يكن مطمئنًا.

فجأة، انفتح باب القاعة الكبير.

لم يكن دخوله صاخبًا ، لكنه كان كافيًا ليُحدث موجة صامتة من الانتباه.

دخل فتحي. كان يسير بثقة رجل يعرف أنه مر بالكثير من الطرق ، لكنه لم يتعب بعد. كان متأبطًا ذراع امرأة ممتلئة القوام ، ترتدي فستانًا لامعًا بلون زمردي ، وعلى وجهها ملامح حيوية تشبه نساء الأحياء الشعبية اللواتي تعلمن كيف يضحكن رغم كل شيء.

خلفهما شاب في أوائل العشرينيات - ابنه على الأرجح - ومعهم امرأتان تبدوان كمساعدتين أو قريبتين.

لكن ما جعل الزمن يتوقف لثانية كاملة... كان وجه فتحي.

وجه لم تره فتون منذ شهور.

شعرت فتون أن شيئًا داخل صدرها انكسر فجأة ، كزجاج رقيق سقط دون إنذار.

همست نوال، وقد اتسعت عيناها:

هذا... فتحي ؟

لم تستطع فتون أن تجيب.

كان يقترب. خطوة... ثم أخرى. كل خطوة كانت تضرب ذاكرة فتون كحجر يسقط في بئر عميق.

فتحي... بعد كل هذه الشهور... لماذا الآن ؟

شعرت أن قلبها بدأ يدق بعنف غير معقول. كانت تعرف هذه المشية. كانت تعرف هذه العينين. وكانت تعرف جيدًا ذلك الماضي الذي دفنته بكل ما أوتيت من قوة.

وقف فتحي أمام الطاولة.

ابتسم ابتسامة هادئة ، كأن اللقاء عادي تمامًا.

قال بصوت واثق:

مساء الخير يا فتون هانم

رفعت رأسها ببطء. عيناها التقتا بعينيه. لحظة واحدة فقط. لكنها كانت كافية لتعيد سنوات كاملة من الذكريات.

قالت بصوت بالكاد سُمع :

أهلاً... يا فتحي

ثم التفت إلى نوال وسلم عليها أيضًا.

كانت نوال تحدق في المرأة التي معه ، في فضول صامت.

فهم فتحي السؤال الذي لم يُسأل.

ابتسم، ثم قال ببساطة:

اسمحي لي أعرفكم... فوزية.

ثم وضع يده برفق على كتف المرأة بجواره.

فوزية... زوجتي

كلمة **زوجتي** سقطت في قلب فتون كصاعقة صامتة. شعرت بالأرض تميد تحتها. ارتجف جسدها فجأة.

كادت تسقط لولا أن فتحي مد يده بسرعة وأسندها.

قال بقلق خافت:

مالك ؟

لكن السؤال كان متأخرًا. لأن الدهشة كانت قد احتلت وجهها بالكامل.

أما نوال فكانت تنظر إليهما في صمت مطبق ، كأنها تحاول فهم مشهد لا تملك كل مفاتيحه. كانت تريد أن تسأل. لكن شيئًا في الجو منعها. شيء ثقيل... كذكرى قديمة تطفو فجأة على السطح.

وقبل أن تتمكن فتون من أن تنطق بأي كلمة ، دوّت في القاعة أصوات الأبواق.

وصل العروسان.

انفتحت الأبواب الواسعة ، ودخل الضابط حسام مع عروسه وسط تصفيق الحاضرين ، والموسيقى ارتفعت فجأة كأنها موجة فرح جارفة.

وقف الجميع. حتى فتون. حتى فتحي. حتى نوال.

وفي لحظة لم يتوقعها أحد ، أطلقت فوزية زغرودة عالية ملأت القاعة. كانت زغرودة صافية ، حادة، مليئة بالحياة.

التفت إليها كثيرون مبتسمين.

لكن فتون شعرت بشيء آخر. شعرت أن تلك الزغرودة كانت إعلانًا غير مقصود... عن بداية مواجهة لم تكن مستعدة لها.

X

بعد أن جلس العروسان على الكوشة ، بدأت الموسيقى تعلو شيئًا فشيئًا. تحولت القاعة إلى موجة من الحركة.

بعض المدعوين بدأوا الرقص أمام العروسين ، آخرون تجمعوا حولهما للتهنئة . الضحكات ارتفعت ، والأنوار انعكست على الفساتين والبدلات مثل أمواج صغيرة من الضوء.

شُد العريس و العروس إلى ساحة الرقص وسط تصفيق الجميع.

لكن على طاولة فتون ، كان الزمن يسير بطريقة مختلفة.

ببطء... شديد.

جلست فوزية بجوار فتحي ، تتحدث مع نوال بحماس طبيعي ، كأنها تعرفهما منذ سنوات.

قالت مبتسمة :

الفرح جميل قوي ، صُح ؟

ردت نوال وهي تحاول أن تبدو طبيعية:

جداً.

لكن عينيها كانتا تذهبان كل لحظة إلى فتون.

أما فتون فكانت صامتة.

تنظر إلى فتحي أحيانًا... ثم تبعد نظرها بسرعة.

وفي داخلها ، كان الحوار الحقيقي يدور.

زوجته... إذن تزوج. لماذا يؤلمني هذا ؟ ألم أكن أنا من اخترت الابتعاد ؟

رفعت عينيها نحوه فجأة.

سألته بهدوء:

بقالكم قد إيه متجوزين ؟

أجاب ببساطة:

بضعة شهور".

هزت رأسها ببطء. بضعة شهور ، بينما أنا قضيت كل أيامي أحاول أن أنسى.

قالت فوزية بمرح:

والله فتحي بيحكي عنكم كتير .

تجمدت فتون.

عنّا ؟

ضحكت فوزية:

أيوه... بيقول إنكم معارف من زمان

نظر فتحي إلى فتون لحظة طويلة.

كانت في تلك النظرة جملة كاملة لم تُقال.

جملة تقول:

ليس مجرد أصحاب. أنا زوجته .

لكن لا أحد في الطاولة قالها بصوت عالٍ.

الموسيقى ارتفعت. الناس يرقصون. العروس تضحك. العريس يدور بها في ساحة الرقص. والقاعة كلها تبدو كأنها تحتفل بحب جديد.

لكن في قلب فتون...

كانت قصة قديمة تستيقظ من نومها. قصة ظنت أنها انتهت.

لكنها أدركت فجأة... أن بعض القصص لا تنتهي. إنها فقط تنتظر اللحظة المناسبة... لتعود.

يخرج الحي من الميت

كانت السماء فوق المدينة رمادية كأنها تفكر بصمت . الهواء ثقيل ، والممر الطويل في المستشفى الحكومي يضجّ برائحة المطهّرات وصوت خطواتٍ مترددةٍ تحمل القلق أكثر مما تحمل الأجساد .

في تلك اللحظة ، كانت الحياة والموت يجلسان متجاورين على مقعدٍ باردٍ من حديد.

رنّ الهاتف في يد فتون.

كانت أصابعها طويلة ، أنيقة ، لكنها ارتجفت قليلًا وهي تضغط زر الاتصال. في الجهة الأخرى ، كان فتحي يجيب بنبرةٍ شبه لاهية ، كمن اعتاد أن تأتيه الأخبار دائمًا من بعيد.

فتون :

"فتحي... نوال في المستشفى".

صمت.

كأن الكلمات احتاجت وقتًا لتستقر في رأسه.

فتحي:

"المستشفى ؟ لماذا ؟"

تنفست فتون ببطء ، وهي تحاول أن تبدو هادئة رغم أن قلبها كان يطرق صدرها بعنف.

فتون " :الولادة".

ثم أضافت بنبرةٍ لا تخلو من شيءٍ خفيّ :

"جئتُ معها".

ساد صمتٌ قصير. لم يكن صمتًا فارغًا... بل صمتًا مليئًا بالحسابات.

بعد دقائق قليلة ، كان فتحي يصل إلى المستشفى ، ومعه زوجته فوزية.

X

كانت نوال داخل غرفة العمليات.

الضوء الأبيض ينسكب من تحت الباب المغلق كأنه خطّ من القلق.

جلست فتون على المقعد ، متماسكة ، ويديها متشابكتان في حجرها.

أما فوزية فكانت تمشي ذهابًا وإيابًا.

فوزية :

"كم مضى من الوقت؟"

فتون:

"ساعة تقريبًا".

أومأت فوزية برأسها ، لكنها لم تجلس .كانت هناك حركة مضطربة في داخلها ، كأن شيئًا خفيًا يدقّ في أعماق جسدها.

أما فتحي فكان واقفًا قرب النافذة ، ينظر إلى الليل. في داخله، كان هناك صوتٌ آخر.

كم امرأة دخلت حياتي ؟ كم طفلًا خرج من اسمي ؟ وهل كنت يومًا أبًا حقيقيًا ؟

لم يجب.

X

انفتح باب غرفة العمليات. خرج الطبيب.

وجهه كان متعبًا... وهذا التعب كان يحمل شيئًا غير مريح.

اقترب الثلاثة منه .

فتحي :

"كيف حالها ؟"

تنهد الطبيب قليلًا ، كأن الجملة التالية ثقيلة . ثم قال :

"الطفل بخير"...

توقفت الكلمات لحظة.

..."لكن الأم... للأسف... توفيت".

سقط الصمت كحجرٍ في بئرٍ عميقة .شعرت فتون أن الهواء انقطع للحظة.

أما فتحي، فوقف بلا حركة. لم يصرخ... لم يبكِ... فقط بدا كأن شيئًا في داخله انطفأ قليلًا.

الطبيب:

"الطفل في الحضانة الآن".

ثم أضاف بنبرةٍ عملية:

"صبي... وصحته ممتازة".

ذهبت فتون فورًا إلى الحضانة.

خلف الزجاج، كان الطفل نائمًا... ملفوفًا في قماشٍ أبيض.

وجه صغير... أنف دقيقة... كفان تتحركان ببطء في الهواء.

شعرت فتون بشيءٍ غريب يتحرك في قلبها. ليس شفقة فقط.

شيء آخر... أعمق.

فتون (بهمس) :

" يا صغير... خرجتَ إلى الدنيا وحدك".

ثم التفتت إلى فتحي.

"سآخذه".

رفع فتحي حاجبيه.

"ماذا تقصدين؟"

"سأربيه... سأجلب له مرضعة".

ثم نظرت إليه نظرةً تحمل ذكرى قديمة.

"كما فعلتَ أنت... من قبل".

فهم فتحي الإشارة.

قبل سنوات، حين وُلد طفليه... كانت فتون هي من تكفلت بكل شيء.

لكن الزمن تغيّر.

X

بينما كان الحديث يحتدم قليلًا... شهقت فوزية فجأة. وضعت يدها على بطنها.

"آه"...

اقترب الطبيب بسرعة.

"هل أنتِ حامل ؟"

هزّت رأسها وهي تتألم.

فحصها بسرعة.

ثم قال بدهشة:

"الولادة بدأت".

اتسعت عينا فتحي.

"الآن ؟ " !

"نعم... سنأخذها فورًا".

وفي لحظة ، كانت فوزية تُدفع على السرير إلى غرفة العمليات.

X

جلست فتون وحدها في الممر.

الضوء الأبيض... الساعة على الجدار... خطوات الممرضات. كل شيء أعاد إليها ذكرى قديمة.

ذكرى يومٍ آخر... مستشفى آخر... ووجعٍ آخر. حين كانت هي نفسها على وشك الولادة.

حين كان زوجها يقف في الخارج... ينتظر... لكنه لم يكن ينتظرها هي... بل ينتظر الطفل.

ابتسمت بمرارة.

يا للعجب... نحن النساء... مجرد جسورٍ تمرّ عليها الحياة.

رفعت رأسها نحو السقف.

وهكذا... يخرج الحي من الميت.

X

مرت ساعة. انفتح باب العمليات مرة أخرى.

خرج الطبيب... هذه المرة مبتسمًا.

"مبروك".

اقترب فتحي بسرعة.

"ولد؟"

هز الطبيب رأسه.

"بنت... جميلة جدًا".

ابتسم فتحي لأول مرة تلك الليلة.

بنت.

حياة جديدة.

X

حين رأت فتون فتحي يتجه نحو الحضانة، فهمت. وقف أمام الزجاج. طفلان الآن. صبي بلا أم. وبنت... لها أم.

التفت إلى فتون.

"سيبقى معي".

ضيّقت فتون عينيها.

"قلتُ إنني سأربيه".

هز رأسه بهدوء.

"فوزية سترضعه".

صمتت.

"وطفلتها؟"

"كلاهما".

ثم أضاف بنبرةٍ حاسمة:

"هما أخوان الآن".

X

حاولت فتون كثيرًا. حدثته. جادلته. ذكّرته بأيامٍ قديمة.

"تعالوا معي إلى القصر... سأهتم بهما".

لكن فتحي هذه المرة لم يتراجع.

"سنعود إلى بيتنا".

فقط هكذا. كأن شيئًا تغيّر داخله. كأن رجلًا آخر خرج من داخله فجأة.

X

خرجت فتون من المستشفى . خطواتها بطيئة .الغضب يشتعل قليلًا... لكن تحته شيء أعمق.

الاعتراف.

وقفت عند باب المستشفى. ونظرت إلى السماء.

هناك... بعيدًا... كانت تلمع نجمة صغيرة.

ابتسمت ابتسامة خفيفة، حزينة.

ثم همست:

"ها قد حدث".

كانت تعرف الآن. أنها فقدت السيطرة على فتحي.

تمامًا كما فقد أبوها السيطرة عليها يومًا... حين كبرت... وصارت امرأة لها إرادتها.

التاريخ يعيد نفسه.

لكن بطريقةٍ أكثر قسوة.

تنهدت.

ثم قالت بصوتٍ خافت كأنه يخاطب الليل كله:

"هكذا إذن"...

"يخرج الحي من الميت".

وسارت. بينما خلفها ، في غرفةٍ صغيرة داخل المستشفى...

كان طفلان حديثا الولادة ينامان بسلام، غير مدركين أن حياتهما بدأت على أنقاض موتٍ وحبٍ وصراعٍ قديم.